حميد العقابي

المرآة

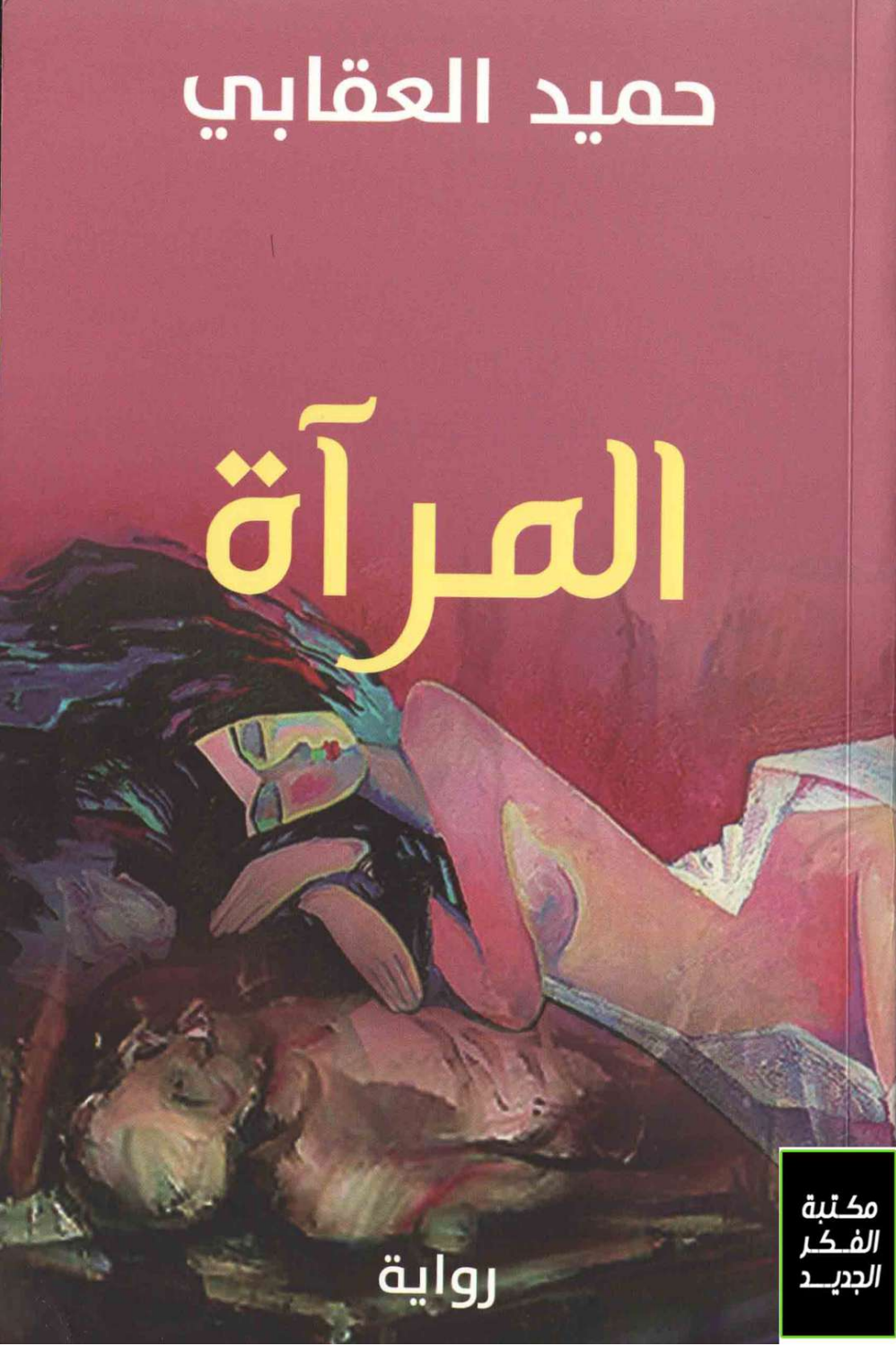

رواية

مكتبة الفكر الجديد

المرآة

مكتبة
الفكر
الجديد

الكتاب: المرآة

المؤلف: حميد العقابي

الطبعة الأولى
2015م

عدد النسخ: 1000
عدد الصفحات: 160 / القياس: 14.5 × 21.5

الناشر

دار ميزوبوتاميا

للطباعة والنشر والتوزيع

بغداد – شارع المتنبي

موبايل: 07905139941

mazin24@ymail.com

الإشراف العام: مازن لطيف
hamawendi@yahoo.com

مكتبة الفكر الجديد

المرآة

رواية

حميد العقابي

مكتبة
الفكر
الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

فتحَ الشرطيُ بابَ المقعد الخلفي للسيارة، وأشار إليّ باسطاً كفيه بحركة استعراضية وهو يردد " تفضل.. ". بدا لي كأنه يقولها بسخرية أو أنه يمنّ بها على شخص لا يستحق الاحترام. دلفتُ إلى جوف السيارة بسرعة خاطفة متحاشياً كاميرات الصحفيين التي توهمتُ أنها تلاحقني لالتقاط صور للقاتل الذي أثارت جريمته ردود أفعال عنيفة، لم تهدأ منذ يوم ارتكاب الجريمة، لم تطل قضية وجود الأجانب في الدنمارك فحسب بل تعدت إلى ما هو أبعد بكثير، وقد تصدرتْ صورتي الصفحة الأولى من صحيفة الـ (الكسترا بليذ) الشعبية وصحف أخرى وبعناوين كبيرة تحمل معاني التحريض على طرد الأجانب الذين أصبح وجودهم يشكّل خطراً على التقاليد والحضارة الدنماركية، فوجدَ البعض في هذا فرصة للتهجم على العرب والمسلمين ودينهم الذي يحرّض على العنف والقتل، وتقاليدهم المتخلفة.

جلستُ لصقَ نافذة سيارة المارسيدس بمقاعدها الوثيرة، بينما جلس الشرطي المرافق لصقي تماماً محتلاً أكثر من ثلثي المقعد، تاركاً إلى يمينه مسافة تسع لشخص ثالث وربما لشخصين مثلي، بينما كان المقعد الأمامي خالياً إلا من السائق الذي كان مشغولاً بترتيب قيافته وهو ينظر في المرآة الصغيرة التي أمامه مطلقاً صفيراً وراسه يترنح. وعلى الرغم من أني حييته بوضوح إلا أنه لم يرد على تحيتي بتجاهلٍ مقصود. رفعتُ ياقة معطفي الشتوي حتى غطت رأسي، وحشرتُ نفسي في بطانة جسدي الذي تضاءل حتى تخيلتني مجرد فراغ لا يشغل حيزاً في هذا الكون. تحركت السيارة ببطء مجتازةً عدة طرق وأزقة متشابكة قبل أن تأخذ الطريق السريع. خلال ذلك تجرأتُ على رفع رأسي قليلاً

مكتبة الفكر الجديد

لألقي آخر نظرة على حركة الناس والمرور، فربما لن أرى هذا المشهد بعد الآن. كان الثلج يهطل بغزارة والناس يدبّون على الأرض، يحاولون التشبث بالأرض الزلقة كيلا تفلت من تحت أقدامهم، لكني أعدتُ رأسي إلى بطانتي بعد أن اصطدمت نظراتي بنظرات السائق في المرآة الأمامية الصغيرة والذي كان يبدو أنه يراقب كل حركة تبدر مني بتشفٍ وحقد، متحفزاً لاستثارتي، هكذا حسبت.

ثلاث ساعات أو أكثر بقليل تفصل ما بين كوبنهاكن ومدينة هورسنس حيث يقع السجن المركزي الذي سأقضي فيه بقية حياتي أو أخرج منه وأنا في عامي السبعين تماماً.

" لا.. لا، سنة السجن تسعة أشهر. "

وجدتُ بذلك شيئاً أفكر فيه. مسألة حسابية قد تأخذ بعضاً من الوقت الذي تستغرقه الرحلة نحو السجن. رحلة كنت أتمنى ألاّ تنتهي، حتى لو كانت النهاية اصطدام السيارة أو سقوطها في البحر، أو أن سائقها يقودها إلى اللانهاية.

" أربعة عشر عاماً. "

هكذا نطق الحاكم بالحكم وهو يتطلع في عينيّ بنظرات حقدٍ، تقول في سرها :

" آه لو لم يُلغَ حكم الإعدام. "

ظناً منه بأني كنتُ فرحاً بذلك، بل أنا نفسي كنت أتمنى لو أن حكم الإعدام لم يلغَ كي ينقذني من ألف مشنقةٍ ستطاردني في ما تبقى لي من عمر.

" أربعة عشر عاماً.. كل عام تسعة أشهر.. هذا يعني أن المدة الفعلية التي سأقضيها في السجن هي عشر سنوات ونصف.. أي مائة

مكتبة الفكر الجديد

وستة وعشرون شهراً .. أي ثلاثة آلاف وثمانمئة وستة وثلاثون يوماً .. اي... أووووو

فجأة مالت السيارة قليلاً ثم دارت على نفسها دورتين. فهبّ الخوف في داخلي. ودونما شعور أخرجتُ رأسي لأستجلي الأمر. فرأيتُ السيارة وقد توسطت الطريق عرضاً وراحت تنزلق ببطء، ومما زاد من رعبي أن شاحنة كبيرة كانت تنزلق خلفنا وكما يبدو أن سائقها فقدَ السيطرة عليها. سحبتُ رأسي متقنفذاً، وأغمضتُ عيني مترقباً لحظة الموت، الموت الذي تذكرني أخيراً بعد أن تخلّى حبل المشنقة عن اختصار المسافة. " أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن.. ". لم أكمل النطق بالشهادتين فقد شعرتُ بتوقف السيارة وهدأت أصوات الشرطيين وارتفع زفيرهما دالاً على زوال الخطر. نزلا من السيارة فهممتُ بالخروج، إلا أن نظرة أحدهما القادحة نهرتني فتجمدتُ في مكاني مراقباً ما يدور أمامي في الفضاء الأبيض. لم يكتف بهذا بل عاد كأنه تذكر أمراً غفل عنه. ربط كفيّ بالكلبجة وشدّها إلى مقعد السيارة الأمامي وهو يتطلع إليّ بسخرية، وقد أغمض عينيه اليسرى. وقف إلى جانب زميله في منتصف الطريق الذي غطاه الثلج وهما يتتبعان آثار انزلاق الشاحنة ويقيسان بنظرتيهما المسافة القصيرة الفاصلة ما بين نقطة توقف الشاحنة وبين موتنا الذي تأجل بمعجزة. عادا إلى السيارة وهما يضحكان بصوت منتصر. لم ينظرا إليّ وانشغلا بالحديث عمّا جرى متجاهلين وجودي بينهما، بل لم يلقِ أيّ منهما نظرة على هذه الكتلة الناتئة.

" آهٍ لو لم يلغَ حكم الإعدام. "

سمعتُ العبارة وإنْ لم ينطق بها أحد.

مكتبة الفكر الجديد

" ولكن ما الفرق.. ؟ فأنت منذ هذه اللحظة إنسان عاطل عن كل شيء.. نتوء لا معنى لوجوده.. حتى الهواء الذي ستتنفسه منّة أو شفقة من ناموس الطبيعة كحال الحيوانات أو الحشرات، لا.. أنت لا شيء.. "

انطلقت السيارة ثانيةً بترنحٍ على الأرض اللزجة، وقد تشبث السائق بمقودها، محاولاً السيطرة على اتجاه سيرها، مردداً شتائم حسبتها موجهة لي، ثم شيئا فشيئاً استعادت صحوها فسارت بخط منتظم، فعدتُ متقنفذاً بمعطفي، متحاشياً نظرات السائق الذي بدا ضجراً، يبحث عن شيطانٍ كي يشتمه ويفرغ غضبه عليه، لتوريطه في مهمّة نقل مجرمٍ في هذا الطقس الثلجي.

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

مكتبة الفكر الجديد

اتذكر حينما سألك المحقق الدنماركي قبل إثنين وعشرين عاماً عن سبب طلبك اللجوء إلى الدنمارك ؟. توقفتَ أمامَ سؤاله مفتعلاً الأنفةَ والكبرياء، وكنتَ قد هيأت الجوابَ مسبقاً، الجواب الذي كنتَ تظنه سيجعلك أمام السلطات الدنماركية متميزاً عن بقية اللاجئين الفارين من الحرب، أو الذين يدّعون المعارضة والعمل السياسي. اعتدلتَ في جلستك زافراً كأنك تزيل عن صدركَ ركاماً من الهموم، وببطء تحدثت عن الأسباب التي جعلتك تغادر وطنك، وبلباقة جعلت المحقق الدنماركي يُبدي إعجابه الشديد بإتقانك المتميز للغة الإنكليزية وطريقة تلفظك الكلمات " كأنك قضيت عمراً في بريطانيا العظمى " هذا ما ردده أمامك وأيّده المترجم الذي اعترف بأن لك الحق أن تصرّ على أنك لستَ بحاجة إلى مترجم مادام المحققون كلهم يجيدون اللغة الإنكليزية. هذا الاعتراف وهذا الزهو جعلاك واثقاً مما سوف تقوله بعد أن ترددتَ أمس حينما أخبرك أكثر من لاجئ، بأن عليك أن تختصر كلامك في حدود الإجابة على السؤال، وألاّ تدّعي أو تبالغ في أهميتك، فهذا لا يعني بالنسبة للمحققين شيئاً بل إن رفض الاشتراك في الحرب وحده سبب كافٍ للموافقة على منحك حق اللجوء الإنساني، فلا تُسهب في كلام قد يوقعك في تناقض يسبب لك مشاكلَ أنت في غنى عنها ! .

" صدّقني.. لا فرق بين اللجوء الإنساني واللجوء السياسي. "

" هنا لا ينظرون إلى شهاداتك وتأريخك السياسي.. هنا ينظرون إلى إنسانيتك فقط.. لذلك الكل أمامهم متساوون... "

مكتبة الفكر الجديد

إلا أن الحفاوة التي استقبلك بها المحقق وإبداءه الإعجاب بثقافتك ولغتك الإنكليزية وأموراً أخرى، أوحت لك بالتميز عن بقية اللاجئين العراقيين الذين من بينهم من لم يكمل حتى مرحلة الدراسة الابتدائية، لذا فقد وجدتَ من حقك أن تجعل الدنماركيين يفهمون جيداً " مو كل أصابعهم سوا .. وألاّ يضعوك في سلّة واحدة مع بقية الرعاع.. " وهذا ما دفعك لأن تعود إلى الجواب الذي هيأته قبل وصولك إلى الدنمارك. أسندتَ ظهرك على مسند الكرسي، رافعاً صدرك قليلاً كأنك تتهيأ لإلقاء خطبة، وبصوتٍ يفتعل الرزانة قلتَ :

" قد أقول لك بأن سبب طلبي اللجوء السياسي هو رفضي الاشتراك في حرب عبثية لا أحد سوى صدام حسين والخميني يعرف لماذا بدأت ومتى ستنتهي.. "

انتبهتَ إلى أنك قلت جملتك دفعة واحدة كأنك قد حفظتها وتمرنت طويلاً على ترديدها قبل أن تدخل غرفة التحقيق. توقفتَ ثم أكملت حديثك متعمداً البطء في الكلام، رافعاً كتفيك قليلاً وباسطاً كفيك بحركة استعراضية :

" وقد أقول لك بأني معارض سياسي... فقد كنت شيوعياً حُكم عليّ بالإعدام.. نعم كنت شيوعياً .. ولكن السبب الأساسي هو أني لست هارباً من الحرب.. ولا من السلطة القمعية في بلادي.. بل أنا هارب من التاريخ.. هارب من المجتمع .. هارب من القيم والتقاليد المتخلفة.. هارب من نمط الحياة الراكد .. أنا هارب ليس من العراق بل من الشرق الأوسط.. لا .. لا .. أنا هارب من الشرق كله. "

شعرتَ بزهو وأنت تردد هذه العبارات راسماً على وجهك علامات الامتعاض من كل شيء، مركّزاً في حديثك على التقاليد البالية والأفكار

مكتبة الفكر الجديد

البدوية الراسخة والتي كبّلتك منذ الطفولة، وها أنت الآن جئت إلى هذا البلد كي تغسل عقلك من أدران الماضي.

هزّ المحقق رأسه راسماً على شفتيه ابتسامة مبهمة، ابتسامة لا تخلو من سخرية. أدركتَ ذلك إلا أنك فسرتها كما كنت تتمنى، فالسخرية آخر شيء تتوقعه من أناس راقين اجتازوا محطات عديدة من التحضر، وحينما أردت أن تضيف شيئاً قاطعك بحركة من يديه كأنه أراد أن يقول بأن ما قلته وما ستقوله ليس جديداً، فقد سبقك الكثيرون إلى هذا الإدعاء، ولكن لا بأس.. لا بأس.. تطلعَ إلى زوجتك الجالسة جنبك والتي لم تنطق بحرف واحد، فارتبكتْ قليلاً ودونما وعي رمتْ خصلةً من شعرها الطويل إلى الخلف مذكّرةً إياه بأنها ليست كباقي النساء القادمات من الشرق الأوسط، فهي لا تغطي شعرها ولا تضع على وجهها نقاباً. تطلعتَ إليها بإعجاب لفطنتها فهزتْ رأسها بخبث، كأن لسان حالها يقول " منكم نستفيد. " أو " إن الطيور على أشكالها تقع. "

أتذكر ؟

كنتَ نجماً ساطعاً وسط حلقة الرفاق في الرحلة الجامعية إلى طاق كسرى والتي قام بها الحزب بمناسبة العيد الحادي والأربعين لميلاده. كانت الأنظار كلها مشدودة إليك وأنت تقرأ مقاطع من قصيدة (لينين) لمايكوفسكي، غنيتَ ورقصتَ فكنت مركز الدائرة، وحينما وصل دور الحديث إليك، سكت الجميع مصغين إلى ما ستقول، وكانت نظرات الإعجاب تلمع في عيون الرفيقات، والحسد يأكل قلوب الرفاق الذين أصبحوا متفرجين خارج مضمار إبراز العضلات الثقافية. ولأن العام 1975 عام المرأة العالمي وكان موضوع حرية المرأة والمساواة وقانون

مكتبة الفكر الجديد

الأحوال الشخصية هو محور أحاديث الجيل الجديد من طلبة الجامعات، فقد كانت لك صولات جعلت الرفيقات يفغرن أفواههن إعجاباً بآرائك المتطرفة التي لا يضيق بها محيط العراق فحسب، بل أكثر المجتمعات الأوربية تحضراً :

" لابد من إعادة مسار تطور التأريخ إلى نقطة البداية.. لتعيد الحضارة الإنسانية بناء نفسها من جديد.. "

وقبل أن يسألك أحدهم " كيف ؟ "، واصلت حديثك ببطء وثقة :

" الحضارة البشرية الآن هي حضارة ذكورة وهذا سرّ فشلها.. إنها حضارة انحسر فيها العقل أمام العضلات.. لذا ساد مفهوم القوة وأصبحت الغريزة الذكورية هي المتسيدة والمستبدة.. منذ عهد الرق الفعلي حتى مرحلتنا الحالية.. مرحلة الرق المقنع.. حتى غدا التأريخ مكتوباً بالدماء وسجلاً للحروب.. منذ أول تحول من المرحلة المشاعية إلى مرحلة الملكية الخاصة.. ثم الإقطاع وصولاً إلى الاستعمار والإمبريالية ".

توقفتَ قليلاً لكي تلتقط ردة فعل الرفاق على كلامك، وحينما وجدتهم مصغين إليك مبهورين بالحماسة التي تلبستك، فانتفش ريشكَ، ورحت تشير إلى نفسك وبغرور واضح :

" أنا كماركسي... ادرك تماماً بأن سيطرة الرأسمال تلازمت مع سيطرة الرجل وانحسار دور المرأة.. واقتصاره على الإنجاب وتربية الأطفال.. "

وقبل أن يهمّ أحدهم بالتعليق أو الإضافة، أردفتَ وبصوت أعلى :

" إذنْ.. لابد من إعادة التأريخ إلى نقطة الخطأ وتصحيح مساره. "

مكتبة الفكر الجديد

" كيف ؟ "

سألكَ أحد الرفاق بنبرةٍ لا تخلو من السخرية أو ربما الحسد. اطلعت إليه وقد أسبلت جفنيك قليلاً، وقلت بلغة الواثق :

" يا رفيقي، لماذا نحن شيوعيون ؟.. إن دورنا الحقيقي هو إشاعة فكرة المشاعية.. ليس في مجال العمل وتوزيع الثروات فحسب كما يقول لينين.. بل علينا أن نسعى إلى أبعد من ذلك.. إلى إشاعة فكرة المشاعية في كل شيء. "

ارتفع صوت أحد الرفاق معترضاً :

" سيحدث انحلال وتسيب في.. "

" ارتفعت ضحكتكَ ساخراً مما قاله الرفيق :

" هه، الانحلال والتسيب والأخلاق مفردات دينية عفا عليها الزمن.. ومهمتنا كشيوعيين إفراغ قاموسنا من كل ما يمت إلى الدين بصلة... "

" والعائلة ؟ "

قالت إحدى الرفيقات بصوت هامس، فكنتَ بانتظار هذا السؤال :

" يا رفيقتي.. ما العائلة ؟ "

قلتَ متطلعاً إلى وجه الرفيقة الذي احمرّ خجلاً، فرحتَ تتطلع إليها بصرامةٍ :

" العائلة يا رفيقتي مؤسسة أنشأها الرجل لإدامة دكتاتوريته... وحينما يأتي الانقلاب المشاعي سيطيح بدكتاتورية الرجل.. ليعيد

مكتبة الفكر الجديد

الأمور إلى طبيعتها الأولى.. ويتم تسليم مقاليد السلطة إلى المرأة.. كما كانت قبل الانقلاب الأول."

ولكيلا تسفّ في الحديث إلى الكلام اليومي، رحتَ تشحن كلامك بالمصطلحات الفلسفية التي كان الرفاق يتداولونها بتمطّق وإعجاب، مرددين عنوان كتاب انجلز (أصل العائلة والملكية الخاصة) :

" لابد من إنهاء المرحلة البطريركية.. والعودة إلى المجتمع المتريركي.. أعني مرحلة سيادة المرأة."

صفقت الرفيقات بإعجاب وحماس لا يخلو من طفولة، فهززتَ رأسك بزهو.

في طريق عودتكم إلى بغداد جلستْ سهاد إلى جانبك، فلامسَ كتفها العاري كتفك. تسمرتَ في مكانك، محاولاً أن تحتفظ بتوازنك المفتعل كيلا تعطي انطباعاً بأنك بالونُ كلمات جوفاء ودعي ثقافة، ولكي تحافظ على الهيبة التي حزتها بجدارة في عيون الرفيقات والرفاق، خاصة وأنك كنت حتى الأمس في نظرهم مجرد (شروقي)، ريفي، متخلف، تنفر منه الفتيات المشغولات بزينتهن واصطياد الزميل الأكثر أناقة والأغنى، واللواتي لا يعرفن بالتأكيد ما يختفي تحت ملابسك المتهرئة، وما يضمر هذا الرأس الأشعث من أفكار تتحين فرصتها لتنطلق في فضاء الحرية.

" أتفق معك تماماً؟"

قالت سهاد فالتفتَ إليها حتى كاد رأساكما يتماسان، وبحجة ضجيج الأغاني التي كان يرددها الزملاء، قرّبتَ أذنك من شفتيها طالباً منها أن تعيد ما قالته.

مكتبة الفكر الجديد

اتفق مع ما طرحته من آراء حول قضية المرأة."

قالتْ. فشعرتَ بأن لكلماتها الممزوجة بالأنفاس تياراً هوائياً يخترق ا ا، ويمضي في عروقك فيشيع خدراً في روحك. هززت رأسك شاكراً، وامالت إلى عينيها بعينين واثقتين فأسبلت جفنيها بغريزة أنثوية. ولأ لد قول وفعل، ثوريّ حالم بتغيير مسار التأريخ، وشيوعي يؤمن بالمساواة والحرية ولا يؤمن بالخجل البرجوازي، فقد أخذتَ زمام المبادرة الثورية حتى وإنْ لم تحن الظروف الذاتية والموضوعية للثورة. رميت ذراعك خلف رأسها بثقة تفتعل اللاقصدية فأمالت جسدها إلى الأمام قليلاً لتحيط ذراعك بكتفيها العاريتين...

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

مكتبة الفكر الجديد

شمرتُ بتململٍ وحرقةٍ في رسغيّ من أثر حديد الكلبجة. تطلعتُ إلى الشرطي الجالس جنبي، لكنه تجاهل نظراتي مفتعلاً الجهل بما أعانيه. ولكي أثير انتباهه أو شفقته رحتُ أحك ظهري بالمقعد بحركة نحو اليمين والشمال. تطلع إليّ، ثم حوّل نظره إلى السائق، فهزّ الآخر رأسه وهو يتطلع في المرآة الصغيرة التي أمامه. فتح الشرطي الجالس جنبي الكلبجة دون أن ينطق بكلامٍ وإنما وضع يده على المسدس وهو يبتسم بخبث وتهديد بإشارة عرفت مغزاها، فابتسمتُ له بحزن. كانت السيارة قد دخلت النفق تحت البحر الذي يفصل جزيرة شيلاند عن جزيرة فين. ضغط السائق على دواسة البنزين فازدادت سرعة السيارة، كأنه يحاول اجتياز النفق المظلم بأقصر وقت، بينما كنتُ أشعر بشيء من الراحة، وقد عمّ ظلام حجبني عن رؤية الخارج. كان الشرطي قلقاً كأنه ندمَ على حلّ وثاقي، ماسكاً كفي بقبضة أقسى من حديد الكلبجة، حتى لاح الضوء في نهاية النفق. تطلعتُ إليه بنظرة تكشف سذاجة ما خطر في ذهنه. فأشاح بوجهه عني وهو يحك رقبته. بعد بضع مئات من الأمتار ارتقت السيارة على جسر طويل. فبدا الأفق مدلهماً، وضباب يعلو سطح الماء تلوح خلله زوارق صيد صغيرة بأشرعة ملونة.

خمس عشرة دقيقة تستغرق رحلة السيارة في العبور بين الجزيرتين، مروراً بالنفق وعبوراً على الجسر الذي شُيد قبل عشر سنوات، وقد كانت الرحلة قبل تشييده تستغرق أكثر من ساعة، حيث ينتقل المسافر بباخرة ضخمة يدخل فيها القطار أو السيارة، ثم تبحر ماخرة البحر بأمواجه المتلاطمة أو المتجمدة.

كان مشهد دخول القطار إلى جوف الباخرة والإبحار مدهشاً، حينما سافرتُ أنا وسهاد أول مرة بعد أن حصلنا على حق اللجوء

مكتبة الفكر الجديد

والإقامة في الدنمارك، وتم تنسيبنا إلى مدينة (فايله) التي تقع في جزيرة يولاند، قريبةً من الحدود الدنماركية الألمانية. كانت المرة الأولى التي نسافر فيها بالباخرة، ولم نكن نعرف عن الرحيل في البحر سوى ما يسببه من دوارٍ، وما علق في مخيلتينا من الروايات التي قرأناها، من سحر التمدد على السطح في مواجهة شمسٍ مشرقة وبحر هادئ، والأحاديث الحميمة بين أناس مختلفي الجنسيات والأعراق تجمعهم إلفة الرحيل ونشوة الاسترخاء. لذا فأول ما خطر في ذهن سهاد أن نصعد إلى سطح الباخرة، مضحيةً بمتعة التجول في أسواق الباخرة ومطعمها. وقفنا على السطح بالرغم من برودة الجو والرياح الشديدة. نشرت سهاد ذراعيها إلى أقصى امتدادهما كنورسة تتهيأ للطيران، بينما رحتُ أنا أتطلع إلى السماء الملبدة بغيوم سودٍ كبحّار يحاول أن يقرأ مزاج النوء، وبدون وعي منا خطونا نحو مقدمة الباخرة، متكئين على سياجها ونحن نتطلع بذهول إلى جؤجؤ الباخرة وهو يشق سطح الماء، وقد لاحت عليه بعض قطع الثلج وهي تنفلق أمام الباخرة. كانت سهاد ترتجف من البرد وأنا أحيط بكتفيها بقوة، مسترقة النظر بين لحظة وأخرى إلى شاب دنماركي وقف قريبا منا، مسنداً ظهره إلى السياج، فاتحاً معطفه الطويل بيديه، بينما كانت صديقته الشقراء تخطو أمامه على مشطي قدميها راقصةً، مترنحةً كحمامة زؤوف، فأتلع الشاب عنقه الأحمر الطويل بزهو فحل حمامٍ ينتظر منقار أنثاه ينقر ريش عنقه وصدره الذي انتفش شهوة، حتى اقتربت منه ببطء فضمّها إليه وأغلق عليها معطفه، ثم راحا يتزاقفان بقبلات لم ترها سهاد من قبل حتى في أكثر الأفلام رومانسية، مركزةً نظرها على حركة لسانيّ العاشقين وهما يتصارعان ويتهادنان بحركات فوضوية، والأجفان مسبلة على غياب عميق، وبخار كثيف يتطاير من فجوات الشفاه الرطبة. ولكي أخرج

مكتبة الفكر الجديد

سهاد من ذهولها وسرحانها، احتضنتها من الخلف ورحت أقبل رقبتها وتحت أذنيها ضاغطاً عجيزتها بقوة وكفاي تحتضن نهديها. كانت تحاول التملص من قبضتي لكنها لم تكن صادقة، بل كانت رغبتها أقوى من رغبتي في تقليد ما يفعله الدنماركيون، وهذا ما عبّرت عنه بعد أن تحسست انتعاظ قضيبي بزفرة أطلقتها وهي تميل برقبتها إلى الخلف وتطيلها بنشوة، محركةً عجيزتها ببطء وهي تتكئ بمرفقيها على سياج الباخرة. فجأة أفاقت من سرحانها فهرعت إلى داخل الباخرة بهمّة، متحججة بالبرد. جلستْ على مقعد لصقَ النافذة، وراحتْ تراقب حركة الموج. بقيتْ صامتةً طوال الرحلة وشفتاها ترتعشان بحركة ملحوظة.

لاحتُ على شفتي ابتسامة دون وعي مني، فتطلع إليّ الشرطي الجالس جنبي، منتظراً أن أخبره عمّا جعلني ابتسم، وحينما أشحت وجهي إلى الجهة الأخرى، ردد بصوت واطئ :

" Idiot "

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

مكتبة الفكر الجديد

.....

مرةً وأنتما جالسان في مقهى بشارع السعدون تخططان لحياتكما المستقبلية، اقترحتَ على سهاد أن تقضيا شهر العسل في مصيف بيخال، وحينما سألتكَ :

" لمَ بيخال بالذات ؟ "

أجبتها وبطريقتك الاستعراضية المفتعلة :

" كي نقفَ تحتَ الشلال.. نتعرى.. ونعلن ثورتنا . "

حينها، وبكل مكر الأنثى سألتكَ، كأنها تختبر صدقك أو تأخذ منك وثيقة التزام بما تقول :

" وهل أنت على استعداد لأن تُري الناس عريك ؟ "

" نعـمممممم. "

قلت ماطاً الحرف الأخير حتى انقطاع نفسك، ونهضتَ كي تريها كيف أنكَ ستخرج عارياً، ولا يهمك رأي الناس. ارتفعتْ ضحكتها وهي تحاول إيقاف محاولتكَ البائسة في تمثيل دور الجريء غير المبالي بأنظار رواد المقهى، الذين راحوا يتطلعونَ إليكَ وأنت تمثل دور المهرج.

" لا، لا .. ليس هنا . "

قالت سهاد ضاحكة، وحينما انتهى المشهد وعدتَ جالساً على كرسيكَ، تطلعتْ سهاد في عينيكَ كأنها تختبر نواياكَ ومدى صدقكَ بما تزعم، وأنت انغافل: لم تكن تعلم ماذا كانت عيناها تخفيان عنك من مكر. ارتسمتْ على وجهها ملامح جدٍّ وحزن، وراحت تردد ونظراتها متسمرة على سطح الطاولة :

" لننتظر ونرَ.. لننتظر ونرَ... "

مكتبة الفكر الجديد

تطلعتَ في عينيها اللتين برقتا بدمعٍ وراحت أجفانهما ترتعش باضطراب واضح. وقبل أن تسألها عن سبب التغيّر المفاجئ الذي قلبَ مزاجها، قالت كأنها تعيد الحديثَ إلى طرافته:

" أراكَ عاجزاً حتى عن التعري أمام المرآة. "

ارتعاش أرنبة أنفها وارتجاف كفيها جعلاك تنظر إلى الأمر بريبة، حتى وإنْ حاولتْ أن تطلي حديثها بصبغة المزاح. لكن وهمك أزال الريبة فحسبتَ كلامها استفزازاً لرجولتك :

" هكذا هي المرأة.. تحاول استفزاز فحولة الرجل كي تحصل على مضاجعة عنيفة تنسيها سنوات الكبت.. أو تشتهي اغتصاباً محبباً يروّض أنوثتها الجامحة. "

هكذا رددتَ مع نفسك بلغة عالمِ نفسٍ أدرك ببضع سنوات ما تبغيه المرأة، أكثر من أستاذه سيغموند فرويد الذي قضى ثلاثين عاماً ولم يجد تفسيراً لما تبغيه المرأة.

ساد صمتٌ بينكما، كسرته سهاد إذ طلبتْ منك أن تغادرا المقهى، متحججةً باختناقها من رائحة دخان السجائر، ولكي تعيد الهدوء إلى نفسكَ ربما تحسباً منها بأنّ جرعة القلق التي زرقتكَ بها اليوم كانت كافية، فأشفقتْ على ضعفك. وافقتْ على الذهاب معك إلى شقّة صديقك الذي ترك مفتاحها عندك وسافر إلى أهله. نطّ فرح خفي في نفسكَ، ووجدتَ في الأمر فرصة لردّ الاعتبار إلى نفسك، وسوف تريها كم أنت جريء في اتخاذ الموقف، وتفضح ضعفها الأنثوي حينما تكون تحتك. جلستما في الطابق العلوي من الباص، وقد كان فارغاً، فألقت رأسها على كتفك وهي تتطلع بحذر خوفاً من صعود أحد، بينما راحتْ كفك تتحرك على امتداد سَاعدها العاري. قبل الوصول إلى ساحة

مكتبة الفكر الجديد

الميدان بمنطقتين نزلتما . تلفّتَ بحذر قبل أن ترتقي السلالم إلى الشقّة، ثم اشرت إليها للحاق بك. ما أن أغلقتَ خلفكَ باب الشقة حتى امتدتْ يدك إلى أزرار قميصك، إلا أن سهاد أوقفتك متوسلةً أن تؤجلَ الأمر، وهي تعيد عليك عبارتكَ التي كنتَ قد كررتها حول ثورتك المزعومة التي ...نطلق من بيخال :

" كي نقف تحت الشلال ونتعرى لنعلنَ ثورتنا . "

قالت ووجهها يتلاطم فيه قلق غريب. شعرتْ بأن حجتها لم تمنعك فتطلعتْ إليك وهي تمسك رأسك بحنو، وقالت :

" سامي.. لايزال أمامك بضعة أشهر لإنهاء الخدمة العسكرية. "

ولكي تعطي مبرراً لارتباكها ومسحة الحزن على وجهها، أضافت دون أن تنظر في عينيك :

" مَنْ يعرفُ ماذا سيحدث في الأيام القادمة. "

هززتَ رأسك موافقاً على ما قالته. ضممتها إليك، ضاغطاً رأسها على صدرك، الذي انتفخ زهواً، مكتفياً بما أبدته من ضعف بين يديك بثار لما جرى بينكما من حديث في المقهى، منتظراً لحظة افتضاض سرّ أنوثتها إلى ساعة صفر قادمة بعد بضعة أشهر.

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

مكتبة الفكر الجديد

نورة بيضاء."

رددتُ مع نفسي بسخرية، فالتفتَ إليّ الشرطي الجالس جنبي، وسألني بامتعاض واضح :

" ماذا قلت ؟"

" لا شيء.. لا شيء.. كنتُ أتحدث مع نفسي."

قلتُ وأنا أنظر إليه بنظرة غير مبالية، فلاحتْ على وجهه ابتسامة شفقة، هازاً رأسه وهو يتطلع إليّ بنظرات محايدة. ثم أشاح بنظره إلى الجانب الآخر، متأملاً الحقول المترامية على جانبي الطريق. أعدتُ رأسي إلى بطانتي محاولاً إيجاد فكرة تبعدني عما استبد بي من ذكريات. مالت السيارة إلى اليسار قليلاً فمال جسد الشرطي علي، وبمبالغة لم أجد لها تفسيراً راح يضغط بجسده عليّ فتكورت على نفسي.

أعرف أن الشعب الدنماركي شعب مسالم، فخلال السنوات التي تجاوزت العشرين لم أتعرض سوى مرتين أو ثلاث لمضايقات من قبل بعض العنصريين، إلا أن إحساساً غريباً يوقظ توجسي وخوفي حينما يجلس قربي رجل ضخم الجثة، حسرَ كمّيه، فظهرت عضلات ساعديه نافرةً رقد غطّاهما وشم أحال البشرة البيضاء زرقاءَ، فقد أشعر وكأنه سيوجّه لي لكمةً في أيه لحظة، وكذلك تستبد بي رغبة في أن أقوم أنا بلكمه. ولولا يقيني بضعف بدني لفعلت ذلك، لكن هذا الشرطي أيقظ فيّ هاجساً من نوع آخر. فعلى الرغم من إدراكي بأن الأمر يختلف كثيراً، إلا أن سلوك الشرطي وعجرفته تكاد تتشابه في كل العالم. إنه السلطة في أبشع صورها. فكيف وأنا الآن في قبضته مسلوبُ الإرادة، مستباح.

مكتبة الفكر الجديد

" جبار الأعور. "

قفز الاسم إلى ذاكرتي، فابتسمتُ للمقارنة، إذ ارتسمت أمامي صورته، ولكن بوجه أحمر وأنف دقيق يكاد الدم ينفر من أرنبته التي رادها البرد احمراراً، وعينين لا تُرى أهدابهما لشدة شقرتهما.

" سيدي.. سيدي.. هذا شيوعي منيوك.. ما يعترف إذا ما أنيكه. "

ثم ينتح سحّاب بنطلونه ويدلق قضيبه الأسود منتصباً، يقربه من وجهي وهو يردد :

" ها.. منيوك.. أشق طيزك. "

ارتفعت ضحكة لا أعرف كيف انفلتت مني. انتبه الشرطي الدنماركي إليّ، فوضع كفه على كتفي مريتاً، ظناً منه بأني أبكي، وحينما وجدني أضحك انسحب قليلاً وهو يتطلع إليّ بفضول، فأشحت وجهي عنه إلى الجهة الأخرى.

" قلْ لنا يا أحمق ما الذي يضحكك. "

قال وهو يمسك كتفي بقبضته غارزا أصابعه حتى العظم. لم أعر اوصفه لي بالأحمق اهتماماً، بل وجدتُ في الأمر رغبة شديدة في الامادي في الحمق. فقلت وأنا أحاول كتم ضحكتي :

" تذكرتُ جبار الأعور. "

" من هذا.. يا للشيطان. "

" شرطي عراقي التقيت به ذات سجن. "

هزّ الشرطي رأسه، ووجّه كلاماً إلى زميله :

" يبدو أن الأمر ليس جديداً عليه.. فهو مجرم محترف. "

قلتُ مصححاً :

" حينما كنت سياسياً. "

مكتبة الفكر الجديد

ارتفعتْ ضحكة السائق، وقال ساخراً :

" كلهم يقولون ذلك. "

فردّ عليه الآخر :

" وربما ما يقوله صحيح.. فلا فرق عند الشعوب المتخلفة بين السياسة والقتل. "

قالَ وهو يتطلع إليّ بفضول، كأنه يريد أن أعترض أو أرد على كلامه إلا أني لم أجبه، وحينما طال صمتي، راح الشرطي الجالس جنبي يهزّ كرشه وهو يردد :

" hvor er du idiot " (يا لك من أبله)

أشحت وجهي جانباً، بينما راحا يتحدثان بينهما بكلامٍ يعنيني ولكنهما لم يقصدا أن يشركاني فيه، وأني وإنْ لم أكن أفهم تماماً ما يقولانه، إلا أني فهمت أنهما يتحدثان وبلهجة سخرية عما سمعاه عن حرب احتلال العراق وعن جبن الجيش العراقي وهزيمته أمام الجيش الأمريكي وعن مشاركة الجيش الدنماركي في الحرب، وكلما كانا يذكران اسم (صدام حسين) كانت ترتفع ضحكاتهما بسخرية لا أدري إن كانا يسخران منه أم مني.

" ما الفرق ؟ كلاكما قاتل.. بل إنك أكثر خسّةً من صدام.. على الأقل أن صدام قتل الكثيرين دفاعاً عن كرسيّه.. ولم يقتل أحد أبنائه. "

كان صوت في داخلي يجلدني بسياط تأنيبه.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

مكتبة الفكر الجديد

(جبار الأعور)... بحركة واحدة من قضيبه أسقط أسطورتك، أسطورة الصمود من أجل تغيير العالم والتصدي للبرجوازية وسلطتها، ولم يمضِ على وجودك في قبضتهم سوى سبعة أيام، وبعدها رفعتَ الراية البيضاء. متعهداً بأن تُدلي بكل ما تعرفه عن رفاقك في الحزب، ولأنهم كانوا يعرفون عنك وعنهم كل شيء. فقد صدّقوا ما قلتَ لهم بأن معلوماتك عن الحزب ليست جديدة، إذ انقطعتَ عن التنظيم منذ تخرجك من الجامعة والتحاقك بالخدمة العسكرية، ولم تلتحق بالحزب ثانيةً بعد تسريحك من الجيش قبل شهر حيث لم يعد للحزب من وجود، ولأن تجميد العضوية في الحزب خلال فترة الخدمة العسكرية كان واحداً من بنود الإتفاق بين حزبك والحزب الحاكم، لذلك كان المحقق متأكداً من صدق اعترافك، وأنّ ما ذكرته من أسماء رفاقك لم يكن خافياً عن المحققين، وأن أغلبهم قد مرّ بالتجربة نفسها وخرجَ من السجن بعد أن وقّع على تعهدٍ بألاّ يمارس العمل السياسي إلا في صفوف حزب السلطة، بل إن من بين رفاق الأمس من هو الآن من رجال السلطة، حتى أعضاء قيادة الحزب الذين نخروا رأسكَ بالنضال والصمود لم يتبقَ أحد منهم، فبينهم من وقّع على وثيقة براءته من ماضيه، وآثر العزلة والابتعاد عن دوخة الرأس، وآخرون قد غادروا العراق وانقطعت أخبارهم منذ أن استشعروا الخطر قبل ما يقارب السنتين، تاركين أولاد الخائبة يواجهون المصير وحدهم بعد أن أوقعوهم في فخ الجبهة الوطنية مع عدو كان يتربص بهم، ويتحين الفرصة للانقضاض على الحزب الذي بقي عصياً على كل الأنظمة السابقة،

مكتبة الفكر الجديد

حتى جاءهم بقناع يغطي قبح وجه تاريخه الذي يعرفه حتى البسطاء من الناس. التهمَ حزبك الطعم فألقى بجميع أوراقه علناً أمام خصمه، ولم تمض سوى خمس سنوات على التحالف حتى وجد حزبك نفسه في الزاوية التي حُشر فيها، فلم يجد أمامه غير الاستسلام أو الهزيمة، فماذا يعني صمودك غير أن تكون رقماً يُطلق عليه (شهيد) يضاف إلى أرقام كثيرة، سيفتخر بطول قائمتها الجبناء والمهزومون.

مبررات كثيرة تجلّتْ أمامك وأنت تتناول القلم من يد المحقق الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة سخرية من تهور مراهقٍ، دفعه النزق إلى السير في طريق وعرٍ لم يدرك خطورته، لإثبات رجولته أو ليجد له " قحبة من رفيقاته يضاجعها ... فالشيوعيون لا يتورعون حتى عن مضاجعة أخواتهم"، كما كان يردد بعض من رجال الشرطة، حينما كانوا يعذبونك خلال الأيام السابقة لكي تقرّ بالانحطاط الأخلاقي الذي دفعك للانتماء إلى حزب الكفر والإلحاد.

مسكتَ الورقة بيدٍ واثقة لم يساورها الشك بما عزمتَ عليه، ووقعتَ عليها وأنت تنظر في عيني المحقق بنظرات لا تخفي انكسارها، عندها ارتفعت ضحكته وهو ينهض من كرسي مكتبه، ويودعك عند الباب مربتاً كتفك باستصغار.

كان أول شعور لك وأنت تواجه الشمس التي لم ترها خلال الأيام السبعة، هو الفرحة بتخلصك من عبء ليس ذنبك إنْ ألقيتَ به عن كاهلك، فلستَ أول من يتخلى عن مبادئه، ولستَ مسؤولاً عن أخطاء تراكمت بفعل قصر نظر القيادة، وبخلاصة ما توصلتَ إليه رحتَ تردد مع نفسك " حشر مع الناس عيد ". خرجتَ من دائرة الأمن العامة مفتعلاً الانكسار وكتفاك هاطلتان إلى الأسفل وعنقك متصلبة كأنك

مكتبة الفكر الجديد

تسير في نومك. لم تلتفت إلى الشرطي الواقف عند الباب، والذي كان ينظر إليك بنظرات حاقدة أو شامتة. اجتزت الممر الخارجي بخطوات حذرة دون أن تلتفت إلى الوراء كيلا تثير التفاتتك شهيتهم فيعيدوك إلى الجحيم مرة أخرى. ما أن ابتعدت قليلاً عن دائرة الكابوس وخطوتَ بضع خطوات على الشارع العام حتى انعطفتَ بحركة سريعة إلى أول زقاق قريب يؤدي إلى شبكة من الأزقة لا تعرف إلى أين تفضي، فلم تكن قد مررت بهذه المنطقة من قبل ولا تعرف دهاليزها التي تخنق الأنفاس برائحة الخوف، فتتخيل أن خلف هذه الجدران جثثاً تتكدس متفسخة او بقايا جثث معلقة بخطاطيف جزارين. اخترتَ زقاقاً من هذه الأزقة المتشابكة ثم انحرفت إلى الجهة المقابلة لتلج زقاقاً أضيق، كأنك تحاول أن تموّه الأنظار التي تتوهم أنها تتابعك. بعد أن اجتزت شبكة الأزقة إلى الجانب الغربي، هرعتَ إلى تلفون عمومي وأنت تتلفت يميناً وشمالاً. أدرتَ رقم سهاد بيد مرتجفة على الرغم من شعورك بشيء يشبه البهجة وأنت تنوي إخبارها ببشرى انعتاقك من عبودية السرّ الذي كان ينخرك، ولتعلن لها بأن القضية التي كنتَ تحملها لم تعد هي القضية الكبرى كما كنت تدّعي، وأنّ لا شيء يستحق التضحية غير الحب، وربما ستضيف بشيء من الحزن بأن المرحلة لم تكن تلائم ما كنتما تحلمان بتحقيقه، أو أنكما كنتما مخدوعين بأحلامكما الطائشة. قطع سلسلة أعذارك صوت والد سهاد الأجش. ترددتَ بالسؤال عنها فأغلقتَ الهاتف ببطء بعد أن أسمعك شتيمة هي بمثابة مديح لو قورنت بسيل الشتائم التي سمعتها خلال الأيام السبعة الماضية. لمتَ نفسك على غفلة أنستك بأن وقت عودة سهاد من العمل لم يحن بعد، فالساعة لم تتجاوز الواحدة وأمامها أكثر من ساعتين للوصول إلى البيت، خاصة في هذا الوقت من اليوم حيث تزداد حركة المرور ويكتظ الشارع بالسيارات.

مكتبة الفكر الجديد

حينما خرجتَ من كابينة الهاتف العمومي لمحت سيارة إجرة قادمة. أشرت إليها فتوقفت قريباً منك، وما أن هممت بفتح الباب حتى انطلقت بسرعة. أدركتَ أن منظرك الغريب بلحيتك الطويلة وملابسك المتسخة هو ما أوحى للسائق بأنك متسكع أو مجنون أو عابث ليس بمقدوره دفع ثمن التكسي. لم يشغلك الأمر طويلاً فالمسافة بينك وبين كراج النهضة الذي تنطلق منه السيارات نحو مدينتك الجنوبية ليست طويلة، وبإمكانك أن تقطعها مشياً. ما أن وصلت الكراج حتى خطرت في ذهنك فكرة أن تعاود الاتصال بسهاد، لكنك امتنعت خوفاً من أن يرفع الأب سماعة الهاتف فتضطر لإغلاقه، إذ لم تمض سوى أقل من ساعة على إتصالك الأول. لم تكن جائعاً ولكن رائحة المشويات المنبعثة من عربة على الرصيف أغراك على الأكل، ليس رغبةً وإنما لكي تقتل بعض الوقت حتى يحين موعد وصول سهاد إلى البيت. تجاهل البائع طلبك، وحينما ألححت عليه، طلب منك الدفع مقدماً لكي يتأكد من أنك لست متسولاً أو عابر سبيل ضائع. دفعتَ له المبلغ وأعدتَ عليه طلبك بلغةٍ لم يألف سماعها من قبل :

" لطفاً.. إنّ تكرمتَ بتلبية طلبي. "

تطلع إليك البائع بذهول وبتوجسٍ، كأنه يرى لأول مرة رجلاً قادماً من كوكب آخر، فأضفتَ بالطريقة نفسها :

" لأن لي موعداً سيحين قريباً. "

قلت وأنت تشدد على التنوين وعلى سلامة صياغتك للجملة، فهز البائع رأسه باحترام، بينما سرى الهمس بين المتحلقين حول العربة، حتى انطلقت من أحدهم قهقهة ساخرة وهو يردد :

" صحيح والله.. الجنون فنون. "

مكتبة الفكر الجديد

لم تشعر بالغيظ من البائع أو الحقد على الساخرين، فقد كنت واثقاً من أن وجهك الذي لم تره منذ سبعة أيام بوساخته والكدمات التي تركتها الصفعات واللكمات عليه توحي للناظر بأنك شريد أو سكّير أو مجنون. رحت تمضغ الأكل ببطء شديد، ساهماً وسط ضجيج الباعة وتزاحم الآكلين حول العربة ونظراتهم التي امتزج فيها الإشفاق والإعجاب وربما الخوف من سرٍّ يحمله هذا الرجل الغامض. بعد أن انتهيت من الأكل توجهت نحو صبي افترش الرصيف يبيع الصحف والمجلات. اشتريت صحيفة (الثورة) ومجلة (الطليعة الأدبية). وقفتَ عند عربة بائع الشاي، فبادر الرجل باهتمام غريب إلى تقديم علبة من الصفيح لتجلس عليها وهو يردد باحترام :

" تفضل أستاذ "

لفتت الجملة أنظار المتجمعين حولك فراحوا يراقبونك بفضول. افتعلتَ التشاغل عنهم، فنشرتَ أوراق جريدة الحزب الحاكم مبرزاً الصفحة الأولى منها، وكأنك تريد الإعلان أمام الجميع عن براءتك من الماضي، أو أنك تريد أن تؤكد للعيون التي تراقبك منذ خروجك من مديرية الأمن العامة بأنك وفيٌّ لتعهدك الذي قدمته قبل بضع ساعات.

فكرتَ أن تتصل بسهاد إلا أنك اكتشفت أن الوقت يسير بخطى سلحفاة وأن كل ما قمتَ به لم يستغرق سوى نصف ساعة، وإذا اتصلت الآن فلن تحصل على شيء سوى شتيمة إضافية من رجلٍ تحترمه وسيكون عمّك قريباً.

كان والد سهاد رجلاً منفتحاً، يبالغ في تهذيبه واحترامه لمحدثه، وربطتكَ به علاقة متميزة، خاصة بعد أن عرف تفوقك في الدراسة واهتمامك باللغة الإنكليزية التي كان هو الآخر يجيدها ويتابع الأخبار

مكتبة الفكر الجديد

بها عن طريق الصحف أو إذاعة لندن التي لا يصدق سواها، وكذلك هو شيوعي قديم على الرغم من انحداره من عائلة إقطاعية خسرت أملاكها وأراضيها بسبب قانون الإصلاح الزراعي الذي سنته الحكومة العراقية بعد ثورة الرابع عشر من تموز عام **1958**. وعلى العكس مما يتوقعه أحد فقد انتمى الشاب إلى الحزب الشيوعي منسلخاً عن طبقته ومعارضاً لنزعة عائلته التي كانت تكنّ لحكومة الزعيم البغض والعداء، محمّلين الحزب الشيوعي مسؤولية ضياع أملاكهم ومجدهم الذي لم يتخلوا عنه حتى بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً، غير أن والد سهاد كان ينظر إلى تأريخ عائلته بنفور يصل حد القرف، فعانى من توجهه السياسي الكثير، إذ سجن عدة مرات وصل في أحدها إلى حبل المشنقة لولا تدخل أفراد من عشيرته كان لهم نفوذ في سلطة الإنقلاب الذي حدث في عام **1963**. فأنقذوه من موت محقق، لكنه ومنذ سبع سنوات ابتعد عن الحزب غاضباً من توجهاته في التصالح مع مجرمي الإنقلاب الذين عادوا إلى السلطة مرةً أخرى. وبرغم ارتدائهم قناع المصالحة وطيّ صفحة الماضي فانطلت اللعبة على ضحاياهم، إلا أن والد سهاد كان يكرر بيقين " إن الأفعى تبقى أفعى حتى لو تغيّر جلدها ". وهذا ما جعله يبتعد عن الحزب الشيوعي، متهماً إياه بقصر النظر في الموافقة على الدخول في تحالف مع أعداء الأمس، مردداً بسخرية من توجهات الشباب الساذج بيت الشاعر زفر :

" قد ينبتُ المرعى على دمنِ الثرى / وتبقى حزازات النفوسِ كما هيا "

تعرّضَ كثيراً إلى مضايقات من رجال السلطة ومن رفاق الأمس، فآثر الصمت، تاركاً السياسة ومشاكلها . ولكي يزيد من عزلته ويبتعد

مكتبة الفكر الجديد

من دائرة الشبهات التي كانت تحيط به، ترك العمل في دوائر الدولة، واشترى بكل ما يملكه أرضاً تقع غربي بغداد، أنشأ عليها حقلاً للدواجن ولتربية العجول، فتضاعفت ثروته سريعاً.

أما والدة سهاد فكانت وعلى الرغم من تعليمها المتواضع، امرأة متعجرفة ومستبدة. ثرثارة، لا تكف عن الترفع على الآخرين والمباهاة بأصولها العشائرية واختلاط نسبها بأرومة عثمانية، بل كانت تعيب على زوجها بأنه لم يتخلص من بداوته، وتكرر أمامه عباراتٍ تدل على احتقارها لكل من ينتمي إلى الريف أو البادية، واصفة إياهم بالتخلف وبصفاتٍ مقيتة، تقولها بلا حرجٍ مغمضة عينيها، فاتحة منخاريها بحركة تدل على التقزز، وهذا ما جعلها تنفر منك منذ اللحظة الأولى التي اكتشفتْ فيها ميول سهاد نحوك، وأن علاقتكما قد ابتعدت عن الزمالة، بينما كان والد سهاد ونكاية بزوجته يتعمد إظهار اهتمامه بك على الرغم من أنه لم يكن مرتاحاً لتطور علاقتكما، مادحاً أصولك وعشيرتك وأهل مدينتك التي قضى في سجنها ثلاث سنوات.

... غير أن الأمر انقلب فجأةً رأساً على عقب (كما يقال)، ولسبب ظل بالنسبة إليك لغزاً حتى اكتشفته بنفسك بعد فوات الأوان، فبينما كان والد سهاد مشغولاً بمزرعته وحقل عجوله، كنتَ تقتنص الفرصة لزيارة سهاد إلى البيت وأنت قادم بإجازتك الشهرية في طريقك إلى أهلك، أو حينما يستبد بك الشوق لرؤية حبيبتك، فتهرب من معسكر المحمودية لتقضي ساعاتٍ في بغداد ثم تعود إلى المعسكر ليلاً. كانت والدة سهاد تستقبلك بوجه يفيض بالترحيب كأنك لم تكن ذلك الجنوبي الذي كنت قبل بضعة أشهرٍ موضع تندرها وتقززها من طريقة كلامه والمفردات الريفية في لهجته، بل راحت تتعامل معك كأمٍ حنون حينما

مكتبة الفكر الجديد

علمتْ بأنك صادق في حبك لابنتها، وأنك مصمم على التقدم لخطبتها بعد إنهائك للخدمة العسكرية (هذا ما كان يدور في ذهنك في تفسير هذا الإنقلاب المفاجئ في سلوك الأم.)، حتى أنها لم تتردد في تقديمك إلى جاراتها وصديقاتها باعتبارك خطيب ابنتها أو الـ (son in law)، كما كانت تردد بزهو مفتعل. وهي وإنْ كانت لا تغادر صالة الضيوف حينما تكون مع ابنتها، إلا أنها كانت تتعمد إطالة فترة غيابها في المطبخ وإنشغالها في إعداد الشاي لتتيح لكما الفرصة لاختطاف قبلات سريعة أو البوح بكلام خاص، وحينما تعود إلى الصالة ترفع صوتها بسعالٍ أو بأغنيةٍ إيذاناً منها بانتهاء الفترة المسموح بها.

مرّةً وأنت تهم بالخروج من البيت عائداً إلى المعسكر، استغلت الأم غياب سهاد لكي ترتدي معطفها وتخرج لتوديعك حتى الشارع العام، فأدخلتْ يدها في جيب جاكيتتك، واضعة رزمة من الأوراق النقدية. ارتبكتَ للمفاجأة التي لم تكن تتوقعها وحاولتَ الاعتراض إلا أنها وضعت يدها على فمك لتمنعك من أن تقول كلاماً تسمعه ابنتها، ثم غادرت الصالة سريعاً. ولكي تثأر لكرامتك وتنجح في الإختبار الذي وضعتك الأم فيه. لم تصرف من المائة دينار درهماً واحداً، وبقيتَ محتفظاً بالمبلغ حتى موعد زيارتك التالي، حينها ذهبتَ إلى شارع النهر، واشتريتَ بالمبلغ بعد أن أضفت إليه من راتبك سلسالاً ذهبياً ودولفيناً من عيار 21 قيراطاً. وقفتَ في منتصف الصالة بزهو وأنت تحيط رقبة سهاد بالسلسال الذهبي وتعدّل بيدٍ كابدتَ لإخفاء ارتجافها من وضع الدولفين الذي استقر بين نهديها. ولأول مرة تطبع قبلة علنية على جبهة خطيبتك أمام أمها التي كانت تجلس على الصوفا، وقد وضعت كفها خلف رأسها وهي تنظر إليكما بنظرات يختلط فيها الفخر بالخبث وأجفانها ترتعش بنشوة غريبة، ولم تمانع حينما أطالت سهاد من وضع

مكتبة الفكر الجديد

رأسها على صدرك وأنت تحيط خصرها بذراعيك، بل سارعت إلى المطبخ لإعداد الشاي، لتترككما متعانقين بشهوة تفصح عن نفسها بجرأة، وكلما ابتعد جسدك عن جسد سهاد، أرسلت الأم إليكما إشارات واضحة المعنى بتحريك أدوات المطبخ أو فتح صنبور الماء، لتتيح لكما وقتاً إضافياً لقبلات ساخنة.

جاءك صوت سهاد هذه المرة وهي ترد على مكالمتك التلفونية، وما أن سمعتْ صوتك حتى انفجرت باكية. أخفيتَ حزنك وارتباكك متحججاً بعدم توفر قطع نقود كافية لتلقيم التلفون العمومي، فاقترحتَ عليها أن تأتي سريعاً إلى كراج النهضة. اعترضت على اقتراحك طالبةً منك أن تأتي أنت إلى بيتهم فرفضتَ بإصرار مؤجلاً ذكر السبب لحين انتفاء ضرورة البوح به بعد أن ترى هي بعينها منظركَ الذي لا يسرّ العدو.

خطرت في ذهنك قبل أن تتصل بسهاد فكرة أن تذهب إلى حلاق لحلق شعر رأسك ولحيتك وإلى حمام عمومي تزيل فيه ما علق على وجهك ورقبتك من فتائل الأوساخ وبقية دم متخثر على شفتيك وتحت عينيك، إلا أنك ألغيت الفكرة لكي تُري حبيبتك الشاهد على صمودك وقسوة التعذيب الوحشي الذي مارسوه ضدك، لكي يحصلوا منك على التنازل عن (القضية) التي بُني حبكما عليها، وبالتأكيد ستغفر لك حبيبتك لحظة الضعف التي لايمكن أن يتجاوزها جسد إنسان، لتبقى صورة كبريائك وإيمانك بالمبادئ ناصعة في عينيّ سهاد.

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

مكتبة الفكر الجديد

رفعتُ رأسي مستطلعاً. كانت السيارة قد اجتازت الجسر الكبير ووصلت إلى أول مدينة في جزيرة فين. توقفتْ عند محطة للوقود. ذهب السائق إلى كشك المحطة، فرجوتُ الجالس جنبي أن يسمح لي بالخروج قليلاً، فسألني إنْ كنتُ أرغب في الذهاب إلى الحمّام فنفيت حاجتي لذلك، وأخبرته برغبتي في تدخين سيجارة. هزّ رأسه رافضاً، ولكن حينما التفتَ إليّ راح يتطلع بوجهي بتمعن ثم قال لي :

" أوكي.. بإمكانك الخروج والتدخين. "

مددتُ له يديّ كي يضع الكلبجة، إلا أنه رفض ذلك وهو ينظر إليّ بنظرة إشفاق. ابتعدتُ قليلاً عن خزّانات الوقود فأسرع نحوي. وضع كفّه على كتفي وهو يتطلع إلى جهة بعيدة. حاولَ أن يجد منفذاً للحديث معي. تلوى وأدار رأسه في اتجاهات مختلفة، ثم وبطريقة خجولة خاطبني :

" لا يبدو عليك بأنك مجرم.. "

وقبل أن يسمع ردي، إنهال علي بوابلٍ من الأسئلة :

" لماذا قتلته ؟ هل كانَ غنياً ؟ هل بسبب الغيرة ؟ هل بدافعٍ ديني أو سياسي ؟ هل كان بينكما ثأر قديم ؟.... "

تطلعتَ إليه بنظرة باردة، ثم أغمضتُ عينيّ وأنا أنفث دخان سيجارتي نحو الأسفل. أدركتُ بأن هذا الواقف أمامي الآن لا يعرف شيئاً عن القضية سوى ما سمعه بأني ارتكبت جريمة قتل، على الرغم من أن صورتي وخبر الجريمة قد نشرا على الصفحة الأولى من جريدة الـ (الكسترا بليذ) و جريدة الـ (BT)، وصحف دنماركية أخرى. انشغلتُ عنه بصمتي وامتصاص عقب السيجارة بشكل يوحي بالغضب. شعر الشرطي بقسوة سؤاله فحاول أن يخفف من لهجته، إلا أنه لم يستطع إيقاف تدفق سيل فضوله، فأعاد صياغة جملته بشكل آخر :

مكتبة الفكر الجديد

" لو استنفرتُ كل فراستي وخبرتي في مجال عملي لكشف قاتل من بين آلاف المشتبه بهم.. لوضعتك في آخر القائمة. "

" لماذا ؟ "

قلتُ دونما وعيٍ، فشجعه سؤالي على مواصلة الحديث :

" لأن وجهك لا يشبه وجوه المجرمين.. فوجهك فيه براءة طفل نائم... "

قالَ، لكنه سرعان ما استدرك استنتاجه كأنه تذكر طبيعة وظيفته، فأضاف :

" أو ربما أنك ممثل بارع.. وتستطيع تغيير ملامح وجهك. "

هززتُ رأسي بحزنٍ واشعلت سيجارة أخرى. لا أعرف ما الذي فتحَ شهيته أو شهوته الشرطية لانتزاع اعتراف مني، فسألني بإلحاح :

" ها .. ماذا تقول ؟ "

حدّقتُ إليه بنظرةٍ مُستفزّ، وقلت :

" في داخل كل إنسان ممثل. "

" كيف ؟ "

سأل بتواضع كأنه يريد مني الإستفاضة في الحديث، فقلتُ :

" يولد الإنسان بريئاً لكن... "

توقفتُ قبل أن أكمل الجملة مستدركاً :

" أو ربما لم يكن يعرف مكمن الشرّ في داخله.. إنّ كان الشرّ والخير هما عنصران امتزجا في النفس البشرية. "

مكتبة الفكر الجديد

هزّ الشرطي رأسه وارتسمت على وجهه علامات غامضة، لكن وميض إعجاب لاح في عينيه، فضيّق من دائرتيهما مصغياً باهتمام واضح، ولكيلا يتيح لي مجالاً للهرب من حديث يبدو بطراً لمن هو في حالتي، سألني :

" وما الذي يجعله أن يكون ممثلاً ؟ "

قبل أن أجيب على سؤاله، عاد السائق وهو يحمل كأسين ورقيين مليئين بالقهوة. قدّم أحدهما إلى زميله الذي تناوله منه وقدمه إليّ فرفضتُ أخذه شاكراً. انتبه السائق فاعتذر عن سلوكه الفظ بتجاهلي. سلّم كأسه إلى زميله وعاد إلى الكشك، فناولني الآخر أحد الكأسين. سادت فترة صمت قصيرة، تمنيت أن تطول لكي تنقذني من رغبة الشرطي في الحديث، قطعها السائق حينما جاء ليخبر زميله بأنه سينشغل قليلاً في تبديل زيت السيارة وفحص إطاراتها. التفت الشرطي إليّ وقد ارتسمت على وجهه علامة فرح، ثم خاطبني :

" حسناً.. الآن عندنا وقت للحديث. "

ولكي يبرر فضوله أو ليجعل السؤال يأخذ شكلاً آخر، وبعيداً عن أسئلة التحقيقات الجنائية، طلب مني سيجارة وراح ينفخ دخانها دون أن يبتلعه. قطعَ صمته وقال بشيء من اليقين موجهاً كلامه لي :

" الحديث معك جميل... وكذلك يحقق صدق فراستي بأنك لا يمكن أن تكون مجرماً. "

هززت رأسي وأنا أردد عبارة الشكر على المجاملة، وقلتُ بطريقة لا تخلو من المشاكسة :

" ولكني لم أقل سوى عبارات مقتضبة. "

مكتبة الفكر الجديد

لاحت على وجهه علامة خجل، فردّ مدافعاً عن كبريائه :

" إنه حدس. "

ثم أضاف موضحاً :

" لا تنسَ أن مهمتي لا تعتمد على الدلائل الملموسة فقط.. وإنما في أحيان كثير يلعب الحدس دوراً كبيراً في معرفة الأسرار. "

هززت رأسي مقتنعاً بما قاله، ثم عاد الصمت بيننا وكل منّا ملتفّاً بمعطفه. ولأنه اكتشف بأني لن أبادر بالحديث، ولن أتكلم إلا بإجابات مقتضبة، فقد سألني :

" ما تحصيلك الدراسي ؟ "

" بكالوريوس أدب إنكليزي. "

" واو... "

صرخ بإعجاب وهو يضع كفه على كتفي. فجأة تذكر وظيفته التحقيقية فراح يحاول استدراجي للحديث باللغة الإنكليزية، معيداً سؤاله الأول :

" ما الذي يجعل الإنسان أن يكون ممثلاً ما دام أنه يولد بريئاً ؟ "

فأجبته على الفور:

" It is a game of masks "

" ماذا تعني ؟ "

عاد إلى الحديث بالدنماركية بعد أن تأكد من صدق إدعائي. ابتسمتُ له ابتسامة توحي بشيء من الانتصار على سوء ظنه، وأجبته بلغة دنماركية حاولتُ انتقاء مفرداتها بعيداً عن اللغة اليومية :

" كلما ازداد وعي الإنسان.. ازدادت حاجته لتغيير القناع. "

مكتبة الفكر الجديد

لا أظن أنه أدرك قصدي، لكنه هزّ رأسه بحركة تدل على إتفاقه مع ما قلت، ولكيلا يفتضح جهله، ارتدى قناعاً ليموّه الأمر فسألني :

" ألا تعتقد أن للبيئة دوراً كبيراً . "

وقبل أن أجيب، أضاف بطريقة لا تخلو من عدوانية :

" مثلاً عندنا في الدنمارك نسبة الجريمة ضئيلة جداً على الرغم من أن القانون الدنماركي متساهل جداً في الحكم على المجرمين.. أما عندكم.. أعني في البلدان المتخلفة.. فهي تكاد تكون يومية... وأكبر دليل على ذلك هو الحروب التي لا تتوقف هناك.. ودينكم الذي يحرّض على القتل. "

حاولتُ ألا أعطيه انطباعاً بأن كلامه قد استفزّني، فقلت متجاهلاً ما قاله:

" بلى.. للبيئة تأثير كبير، ولكن هذا لا يعني أن الجريمة تقتصر على ما تسميه بالبلدان المتخلفة... فالأمر لا يختلف كثيراً... سوى بشكل أو لون القناع. "

وقبل أن يعترض على كلامي قلت :

" لا تنسَ أن الحروب التي هناك تدار بأسلحة.. معاملها هنا . "

لم يعجبه اعتراضي، إذ شعر بأني أحاول الإساءة إلى الدنمارك، البلد الذي آواني ومنحني جنسيته. كنتُ أشعر بأنه على وشك أن يقول لي :

" لو أنت الآن هناك.. لكنت واقفاً والحبل في رقبتك بانتظار من سيركل الكرسي عن قدميك... ولكانت السيجارة التي تدخنها الآن هي شفقة الجلاد لتلبية آخر رغباتك. "

مكتبة الفكر الجديد

سادت فترة صمت بيننا، قطعتها عودة السائق وهو يشير إلينا لمواصلة الرحلة التي نقف الآن في منتصف مسافتها. مسكَ الشرطي ذراعي بخفة، ثم انتبه فأحاط كتفي بذراعه بإشارة تدلّ على التعبير عن المودة. تطلع إليّ قبل أن نصعد إلى السيارة وكأنه تذكر أمراً هاماً فسألني :

" ألست متزوجاً ؟ "

" بلى. "

أجبتُ بخجلٍ لم ينتبه إليه. فسألني :

" ألا تريد أن تتصل بزوجتك ؟ "

قال، وهو يمد إليّ تلفونه المحمول. شكرته رافضاً اقتراحه بأدب، ومتحججاً برغبتي في ألا أسبب لها قلقاً أو حزناً. هزّ الشرطي رأسه إعجاباً بما قلته وفتح باب المقعد الخلفي للسيارة وهو يبسط كفّه أمامي للصعود، مردداً بطريقة لا تخلو من الإفتعال :

" تفضل هير... تفضل يا .. صديقي. "

تحركت السيارة ببطء خارجةً من محطة الوقود، ثم انطلقت سريعا على الشارع العام. ارتفعت من الجالس جنبي زفرةً قوية وهو يردد باللغة الإنكليزية:

" It is a game of masks "

تطلع السائق إلى زميله في المرآة الصغيرة التي أمامه وسأله :

" ماذا تقول ؟ "

فأجابه الجالس جنبي :

" لا شيء. "

❖❖❖❖❖❖❖❖❖

مكتبة الفكر الجديد

أتذكر.. ؟

اعترض والد سهاد على السرعة التي تمّت فيها الخطوبة، متحججاً بأنك لم تزل غير مؤهل لفتح بيت وإعالة أسرة، والحق معه إذ لم يمضِ على تسريحك من الجيش سوى أسبوعين، لكن لأم سهاد كان رأي آخر، فقد اعترضت على اعتراض زوجها مرددةً بطريقة تدّعي ورعاً لا تجيد ارتداء قناعه :

" خير البرّ عاجله... ونريد أن نفرح بأحفادنا بأسرع وقت... "

أما الأب فأصرّ على أن تتم الخطوبة على الأقل بعد أن تجد الوظيفة التي تلائمك وتباشر في العمل، وهنا ارتفع صوت الأم وهي تنهض من الكرسي موجهةً الكلام إلى زوجها :

" أية وظيفة ؟ "

وبصوت أعلى نبرةً خاطبت زوجها دون أن تنظر إليك أو إلى ابنتها :

" أتريد لزوج ابنتك الوحيدة أن يعمل معلماً ؟ وماذا يكسب من عمله ؟ هل سيكفي راتبه للمكياج والعطور.. أو لعشاء في مطعم فاخر ؟"

تكوّرتَ على نفسك خجلاً، وأنت تتطلع خفية إلى سهاد التي حاولت أن تعترض على كلام أمها، إلا أن صوت الأم طغى على كل صوت، فأضاءت وهي توجه كلامها إلى الأب، وقد بدا متضايقاً من سطوة زوجته :

" ولِمَ لا يعمل معك في الحقل، ليساعدكَ أولاً... وثانياً لنكون مطمئنين على ثروتنا. "

مكتبة الفكر الجديد

ساد صمتٌ في الصالة وكل منكم يغور في داخله دون أن يتطلع أمامه لئلا تتقاطع نظرته مع نظرات الآخرين. خرجت الأم من الصالة ثم عادت كأنها تذكرت أمراً. جلستْ على مسند الكرسي الذي كان يجلس عليه زوجها. أحاطت رأسه بذراعها ضاغطةً إياه على صدرها، وبنبرةٍ هادئةٍ ومتفننجة، قالت :

" يا حبيبي... سهاد ابنتنا الوحيدة وأنك تشقى من أجلها ... "

صمتتْ قليلاً وهي تمسد شعر زوجها الأبيض، ثم أضافت وهي تتطلع إليك :

" والآن اصبح لدينا ابن... فماذا نريد أكثر ؟... وهما وأولادهما سيكونون الورثة. "

قطعتْ حديثها لتستدرك كلامها الذي استفزّ سهاد. فراحت تردد :

" الله يطيل بعمرك.. حتى ترى أولاد أحفادك. "

كنتَ سعيداً بالفكرة، وإنْ ادّعيتَ العكس ومثّلت دورَ المتضايق من إهانة وُجهت إليك وانتقصت من رجولتك. حتى بعد أن حاولت سهاد أن تقنعك بالرضوخ إليها لتختصرا المسافة نحو الزواج الذي لا يمكن أن يتم وأنت لم تحصل على الوظيفة بعد. نفختَ صدرك مهدداً بأنك ستهدم كل شيء " لو مسّ الأمر كرامتي "، وحينما كانت تتمرد عليك نفسك وتعرض صورتك في المرآة كوصولي، كسول، يحاول أن يتسلق سلّم غيره ويختصر المسافة للوصول إلى هدفه، كنتَ تتحجج بأنك لاتزال تحمل فكراً معارضا للسلطة، وأنك على الرغم من توقيعك على تعهد التخلي عن ماضيك. إلا أنك في نظرهم تبقى المعارض الذي يبقى تحت المراقبة لاقتناص أية شبهة تصل بك إلى حبل المشنقة، وأن العمل مع

مكتبة الفكر الجديد

عمّك في حقل الدواجن سيبعدك عن أنظارهم فتكون في منجى من إلحاحهم في تطبيق الخطوة الثانية بعد التعهد، فيطالبونك بالانتماء إلى حزبهم أو ربما العمل كمخبر عن رفاق الأمس كما حدث مع بعض من الرفاق، خاصة وأن السلطة كانت تسعى إلى جعل سلك التعليم حكراً على المنتمين لحزبها.

" ههههههههههههههههه "

برافو عليك، فكرة مقنعة لثوريّ قد يكبو مرةً ولكنه سيصرّ على مواصلة السباق على مضمار زلقٍ، أو على الأقل يتوارى عن أنظار المتفرجين لئلا يكون موضع تندرهم وسخريتهم.

... لكن لم يكن الأمر يجري حسب ما كنت تتمناه في قرارة نفسك، فقرار السلطة كان حاسماً، حينما ظهر تعيينك الإجباري كمدرس للغة الإنكليزية في ثانوية مدينة العزيزية التي تقع في منتصف الطريق تماماً بين بغداد والكوت، فرحتَ تغني بسخرية مرة :

" صرت لا ني لهلي ولا ني لحبيبي. "

ما خفف من وقع الفشل هو أن أمامك أكثر من شهرين لبدء الدوام الرسمي في المدارس، ستقضيهما بالقرب من سهاد، خاصة وأنك أصبحت بشكل رسمي فرداً من أفراد العائلة ودخولك إلى بيتهم وخروجك لم يثر ريبة عند الأقارب والجيران، لكنّ لعمك رأياً آخر فقد طلب منك أن تقضي هذه الفترة في مساعدته والتعرف على طريقة إدارة المزرعة. وكانت لفكرته هذي أهداف كثيرة لا تخفى عليك، لإرضاء زوجته التي ألقت اللوم عليه لعدم تدخله بعلاقاته الكثيرة مع المسؤولين في الدولة لإستثناء صهرها من قرار وزارة التربية في التعيين الإجباري، أو " لإبعاد النار عن الحطب " كما سمعته وهو يهمس لزوجته.

مكتبة الفكر الجديد

كان صيف عام 1980، حاراً جداً، وصلت فيه درجة الحرارة إلى أكثر من خمسين درجة مئوية، وأنت تحاول أن تثبت رجولتك وتحملك للصعاب أمام عمك، وأن تكون حريصاً على مصلحة العائلة وأهلاً للثروة التي لن تضل طريقها إليك. وعلى الرغم من أن عمّك لم يعاملك كعاملٍ ولم يطلب منك أن تقوم بمهمة تنظيف الحظائر أو جمع البيض، واقتصر عملك على مراقبة العمال وتسجيل أعداد طبقات البيض والدجاج التي يتم إرسالها إلى أسواق بغداد، ثم مراجعة الحسابات الواردة ومطابقتها مع البضاعة، حذراً من وقوع أي خطأ في الحساب قد يزعزع مصداقيتك وإخلاصك في نظر عمك، إلا أنك كنت تشعر بأنه لا يختلف عن أي مالك لأدوات الإنتاج، وما أنت إلا بروليتاري لا يملك غير قوة عمله وأغلاله، ليس مجازاً بل حقيقة، إذ على العكس مما كنت تحسب، فقد أصبح اللقاء بخطيبتك حلماً بعد أن فرض عليك " الرأسمالي الحقير " المبيت في الحقل حتى نهاية الأسبوع حيث يُفرج عنك بكفالةٍ لأثبات حسن السلوك والإلتزام بما تمليه عليه الأعراف، فكنتَ تقضي ليلةً تبيتها في دار عمك وتحت مراقبة شديدة من قبله، فلا ينام إلا بعد أن يتأكد من أنّ النار قد خمدت، وأن فاصلاً مائياً عميقاً يحول بينها وبين الوصول إلى حقل السنابل المكتنزة بالحب، حينئذٍ تقضي ساعات تتقلب وتضاجع رائحةً تتخيلها تتسرب إلى أنفاسك من الطابق العلوي حيث تنام سهاد . يُطلق سراحكما عصر يوم الجمعة فتقضيانه في نزهة في شارع أبي نؤاس أو في متنزه الزوراء، هناك في زواياه وغياض أشجاره يمكنك أن تسرق قبلات سريعة، تتحول متعتها إلى حسرةٍ وألم شديد تحت خصيتيك، يربك خطواتك، لا يزول حتى تستسفرغ المنيّ باستمناء سريعٍ.

مكتبة الفكر الجديد

فعلاً أشفقتُ عليك... يا سامي.

ليس لأن وضعك المضحك المبكي كوضع من يتقافز محاولاً إمساك قوس قزحٍ أو عنقود عنبٍ يدرك بيقين حلاوته فحسب، وإنما لأنك كلما ظننت بنفسك الفطنة، أبدت لك الأيام سخريتها، فكشفتْ لك أن الغفلة هي سيدة الموقف، وأنّ الله قد تخلى عن الغافلين، بل راح يستمتع بضعفهم وتوسلهم، فبعد أقل من شهر على مباشرتك العمل في ثانوية العزيزية، انعطف تأريخ بلدك كله نحو الغموض، ففي الثاني والعشرين من شهر أيلول ولم تكن قد استلمت راتبك الأول بعد، أضرمت نار الحرب العراقية الإيرانية، فجعلت التفكير في الزواج لا يخطر في ذهن أكثر الناس بطراً، أو كما كان يردد في ما بعد نائب ضابط زامل، آمر بطاريتك " هوّ وين أكو عير يقوم بهذي الأيام" .

بعد ثلاثة أيام من بدء الحرب تم استدعاؤك لخدمة الاحتياط والعودة إلى كتيبة المدفعية في المحمودية. ولم تمض سوى عشرة أيام حتى وجدت نفسك على جبهة مدينة المحمرة الإيرانية التي دخلها الجيش العراقي بعد معارك طاحنة.

سنة مرت، وإنْ كان الخطر على حياتك أقل من بقية الجنود العراقيين بحكم كونك في الخطوط الخلفية للمعركة في بطارية المدفعية بعيدة المدى، إلا أنك لم تكن خارج دائرة الخطر، فموقعكم يتعرض باستمرار إلى القذائف وإلى غارات الطائرت الإيرانية والسمتيات، والأخطر من ذلك هو ما يحيطك من شبهات لا تمحى على الرغم من وجودك كمقاتل يحاول كفيره من الجنود إخفاء تذمره من حرب لا تلوح لها نهاية قريبة، فالتقارير السرية التي كانت ترد من دائرة التوجيه السياسي في الفرقة الثالثة كانت تضعك تحت المراقبة، بانتظار أية زلة

مكتبة الفكر الجديد

أو كلمة تذمرٍ تصدر عنك في لحظة غضب لتودي بك إلى قبضة مفارز الإعدام التي تقف خلفك، لتُرسل إلى أهلك بتابوتٍ خُطت عليه كلمة (خائن) أو (جبان)، وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد، فتهمة الخيانة ستبقى تلاحق أهلك.

سنة مرّت كنتَ تعد الثواني بانتظار دورك في الإجازة الشهرية، تقضيها بين أهلك في مدينة الكوت وبين بينلوب، التي تنتظر بقلق عودتك سالماً من رحلة الموت المؤكد.

في إحدى زياراتك لبيت عمك، فوجئت بأمرٍ لم يخطر في بالك، حينما طلبت منك أم سهاد أن تعقد قرانك على ابنتها. اعترض الأب بشدة وكذلك لم يجد طلبها قبولاً منك، خاصة بعد أن اشترطتْ تأجيل الدخول حتى انتهاء الحرب. كانت أم سهاد تتحدث وهي ترتعش بغضب لم تستطع أن تدرك سببه. الأب الذي فوجئ باقتراح زوجته وقف حائراً، مرتبكاً وراح يحتضن زوجته محاولاً تخفيف توترها، وحينما وجدها مصرّة على رأيها هزّ رأسه موافقاً على مضض، مطمئناً إياها بتحقيق رغبتها. خطر في ذهنك أن المرأة قد تعاني من مرضٍ خطير، وتريد أن تطمئن على مستقبل ابنتها، أو أنها تقتنص آخر فرصة للفرح.

دونما ضجة أو احتفال، ذهبَ الأب وعاد بصحبة كاتب العدل وتمّ تسجيل زواجكما السريع بحضور شاهدين من الجيران. أخذت الأم نسخة من عقد الزواج بحرص منّ يتشبث بوثيقة براءة كان ينتظرها بلهفة. لم تمانع أنت، وإنْ كان فرحك ناقصاً، بل أنت الآخر كنت تحاول أن تقتنص الفرصة لمتعة قد تكون آخر عهدك بالحياة، لكن الذي لفت انتباهك وأقلقك أن هذه الأم التي كانت تفتعل الإنشغال في المطبخ لكي تُخلي لكما الجو للمغازلة والقبلات، تحولت إلى رقيب شديد الحذر

مكتبة الفكر الجديد

لمنعكما من اللقاء حتى بعد أن أصبح الأمر شرعياً. سهاد التي كما عرفتها متمردة، ثورية، ترفض أية شكلٍ من أشكال الخنوع أو انتقاص من إنسانيتها، تحولت إلى (حرمة) منقادة بمشيئة أمها، وراحت تبرر هروبها منك وتمنعها بأعذار غريبة.

"ههههههههههههههه"

أعرف ما يدور في ذهنك الآن يا سامي... ولكن لا تنسَ أن سهاد هي التي أنقذتك من موت محقق، ولولاها لاستسلمتَ لقدرك، وإذا كنتَ قد نجوتَ مرة أو مرتين وأخطأت القذيفة اتجاهها نحوك، ففي الثالثة تكون منيتك.

اقترحتْ عليك سهاد أن تهربَ من الجبهة، وحينما سألتها عن الخطوة الثانية، كان جوابها مفاجأة لم تكن تتوقعها، إذ أخبرتك بأنها لاتزال تحتفظ بعلاقتها التنظيمية في الحزب، وبإمكانكما أن تهربا إلى كردستان والإلتحاق بفصائل الأنصار المسلحة. ترددتَ في بادئ الأمر، فقالت بلهجة يختلط فيها الجد والهزل :

" هناك بإمكاننا أن نتعرى تحت شلاّل بيخال ؟ "

وقبل أن تردّ عليها، أضافت وهي ترسم ابتسامة غامضة على شفتيها :

" الم تكن هذه أمنيتك ؟. "

عندها تذكرتَ لقاءكما في المقهى والحديث الذي جرى بينكما وأنتما تخططان للمستقبل. ارتبكتَ كثيراً وحاولت أن تجد عذراً للتملص من الفكرة، فقلت :

مكتبة الفكر الجديد

أجابتك بثقة :

" وماذا يعني... الكثير من الرفاق بل حتى أعضاء من المكتب السياسي واللجنة المركزية قد جرى لهم ما جرى عليك.. ثم أعادوا صلتهم بالحزب والتحقوا بالحركة المسلحة. "

ولكيلا تترك لك مجالاً للتردد، قالت :

" إنّ لم يرق لنا الأمر فبإمكاننا أن نذهب من هناك إلى سوريا أو .... إلى إيران. "

ساد صمتٌ مخيف كالصمت الفاصل بين قذيفتين، وفجأة حسمتَ الأمر :

" ومتى سيتم الأمر ؟ "

سألتَ، فردتْ سهاد :

" خلال يومين.. لا أكثر . "

وصلتَ إلى كراج النهضة قادماً من مدينتك بعد أن ودّعت أهلك الذين أربكتهم المفاجأة، لكنهم كانوا متحمسين للفكرة حباً بك أو تخلصاً من عبء وجودك في البيت إنّ فكرتَ بالهرب من الجبهة. كانت موجات من المشاعر المتضاربة تضغط على صدرك وأنت تنتظر وصول سهاد حسب الموعد. زاد من قلقك بأنها أكدت عليك بألاّ تتصل بها بالتلفون كيلا يثير الأمر ريبة أمها، وقد قررت ألاّ تخبر والديها، وستترك لهما رسالة توضح لهما فيها القرار الذي اتخذته. بينك وبين اللقاء ساعة

مكتبة الفكر الجديد

تقريباً، كنت تتمنى لو جاءت سهاد لتخبرك بأنها تخلّت عن الفكرة، لكنك سرعان ما تنقلب مشاعرك ليطفح بك الحماس لتحقيق الحلم الذي لم يبقَ من سبيلٍ لتحقيقه سوى طريق الهرب. اشتريت جريدةً ووقفت عند عربة بائع الشاي. مرّت مفرزة من الانضباط العسكري، كان أفرادها يمشطون المكان وأكفهم على المسدسات، يحدقون إلى الوجوه بنظرات صقرية متحفزّة للإنقضاض على فريسة تحاول أن تختفي بين السابلة والباعة الذين افترشوا الأرض المحيطة بكراج السيارات. نقرات على كتفك، جفلتَ. التفتَّ إلى الوراء فرأيتَ أحد أفراد الانضباط العسكري. حاولتَ أن تتماسك وأن تنظر إليه بثقة. طالبك بالهوية، فأخرجت له نموذج الإجازة. تطلع فيه وهو يمسد شاربيه اللذين غطيا فمه، وبفظاظة بدوية سألك عن وحدتك ومكان تجحفلها، فأجبت كتلميذ يردد النشيد الوطني :

" الفرقة المدرعة الثالثة.. اللواء السادس.. بطارية المدفعية.. القاطع الجنوبي. "

هزّ عريف الانضباط رأسه وهو يسلمك نموذج الإجازة، مردداً عبارات مديح للمقاتلين الأبطال حرّاس البوابة الشرقية، إلتقطها مما سمعه من كليشهات البيانات العسكرية وخطب القائد.

الساعة الثانية ظهراً وقفتَ عند بوابة الكراج الكبيرة، ملتفاً بقمصلتك الخاكية، رافعاً قبعتها لتغطي نصف رأسك من الخلف، وقلبك يتوقف مع وقوف كل سيارة إجرة تتوقف قربك. امتدت يد لتخترق الفجوة بين ذراعك وخصرك. التفتَّ. كانت سهاد تقف إلى جانبك بمعطفها الفرو وقلنسوة الصوف السوداء. في الوهلة الأولى تبادر إلى ذهنك أنها جاءت لتخبرك بإلغاء الخطة أو تغييرها، فقد كانت تحمل

مكتبة الفكر الجديد

حقيبة يدوية متوسطة الحجم وكيساً من النايلون لا يتسع لعدة رحلة طويلة. سحبتك من ذراعك ودخلتما الكراج متجهين إلى جهة السيارات التي تذهب إلى مدينة أربيل. لم تخبرك سهاد عن خطوات الرحلة، وكلما ألححتَ بالسؤال كانت تجيبك بنظرة يختلط فيها الخبث بالغنج، ولكنّ عينيها الزائغتين وهما تراقبان القادمين من البوابة الخارجية كانتا تشيران إلى أنها بانتظار الرفيق الذي سيوصلكما إلى الهدف. فجأة مسكتْ سهاد ذراعك من الخلف دافعةً ظهرك بصدرها لتستقلا حافلة صغيرة، وقف سائقها عند الباب بانتظار اكتمال عدد المسافرين. انطلقت الحافلة وأنت تتطلع في الوجوه لعل فراستك تكشف وجه المنقذ. كانت الوجوه تتشابه ملامحها التي جمّدها البرد، فلم يستقر تخمينك على أحدها، حتى التفتتْ نحوكما امرأة تبدو بعمر الثلاثين أو أكثر بقليل، ببشرة بيضاء وشعر يميل إلى الشقرة، كانت تجلس جنب زوجها في المقعد الأمامي. تقاطعت نظرتها مع نظرة سهاد ولاحت على شفتيها ابتسامة أدركتَ من خلالها أنها الرفيقة المكلفة بنقلكما.

قضيتما ليلة في ضيافة الرفيقين الكرديين في بيتهما القريب من قلعة أربيل، وقد احتفيا بكما بمودة كبيرة، خاصة بعد أن عرفا بأنكما مازلتما في شهر العسل، فأصرّا على أن تناما في غرفتهما الوحيدة وينام على الأرض في الصالة الضيقة. ولأول مرة نمتما على سرير واحد. قبل أن تخطو الخطوة الأولى في تحقيق الثورة التي انتظرت ساعة انطلاقها طويلاً، أخبرتك سهاد بضرورة تأجيلها، بسبب " دورة القمر " كما قالت، ففهمتَ المغزى ورحت تشتم القمر والسماء والحظ النكد. وضمتَ رأسك بين نهديها العاريين وغفوتَ منتشياً برغم القلق على مصيركما، وعلى ما سيجري لكما في الساعات القادمة. في ضحى اليوم التالي ودّعكما الرفيقان عند سيارة بيك آب شوفرليت حديثة،

مكتبة الفكر الجديد

انطلقت بكما حسب المخطط باتجاه مدينة قلعة دزه، عبر طريق أربيل - السليمانية. وقد أخبركما السائق بأن عليكما أن تقولا إنكما ذاهبان لزيارة أخ يرقد في مستشفى السليمانية.

ستّ عشرة مفرزة تفتيش أوقفتكما في الطريق بين أربيل والسليمانية، كان تجاوزها يسيراً، وحينما اتخذت السيارة الطريق المؤدي إلى قلعة دزه، لم يعد العذر صالحاً، وأن وجود عربيين في هذه المنطقة لا يعني إلا أمراً واحداً، خاصة وأن مدينة قلعة دزه كانت تقع تحت سيطرة البيشمركه أو العصاة كما كان يردد إعلام النظام، وهنا يتوقف الأمر على لعبة الحظ وحدها. ارتفع منسوب القلق في روحك فارتدّت فرحتك بالانعتاق لتتحول إلى ندمٍ. مفرزة واحدة ستحدد مصيرك. خفف السائق من السرعة حينما لاح على الطريق عسكري شاب ذو ملامح جنوبية. ودون أن يوقف السائق السيارة، مدّ يده نحو العسكري وسلّمه كروساً من سجائر (سومر). تناوله العسكري بيد وهو يشير باليد الأخرى إلى مواصلة الرحلة. عندها صرخ السائق مبتهجاً وهو يشير إلى الدخول في المنطقة الآمنة، الخارجة عن سيطرة النظام. تطلعتَ في وجه سهاد فرأيتَ الدم وقد تحرك ثانية تحت بشرة وجنتيها الرقيقة.

غرفةٌ طينية، جدرانها مغطاة بقطع من الكارتون وسقفها من أغصان الأشجار. تحولتْ إلى ثلاّجة بعد أن قام كاكا نوزاد بإخماد نار المدفئة. لم يترك لكما فرصة الالتصاق ببعضكما كما كنتَ تأمل، إذ اضطجع في ركن الغرفة المقابل لكما، ولم تمضِ سوى دقائق وبعد نوبة من سعال صادرٍ عن صدر نخره تبغ رديء، ارتفع صوت شخيره مختلطاً بأصوات إطلاق نارٍ كثيف كأن معركة طاحنة تجري على بعد أمتار منكما.

طَرَقات حذرة على باب الغرفة. نهض كاكا نوزاد مسرعاً. تحدث مع الطارق ثم عاد وأضاء الفانوس المعلق في السقف. أشار إليكما

مكتبة الفكر الجديد

للنهوض وبحركات من يده عرفتما إنه يدعوكما للإستعداد لمواصلة الرحلة. جاءت امرأة وطلبت من سهاد أن تذهب معها بينما بقي كاكا نوزاد معك يساعدك في ارتداء الملابس الكردية. ارتفعت ضحكته وهو يتطلع إليك وأنت بالشروال العريض والبشتين الذي يحيط خصرك. انتزع مرآة صغيرة معلقة على الجدار وقربها منك فرأيتَ رأسك وقد تضاعف حجمه بسبب لفّة الجمداني. أخفيت ضحكتك تجنباً لسوء الظن. عادت سهاد وهي ترتدي ملابس النساء الكرديات المزركشة بكل الألوان، فبدت كأنها حديقة تمشي على قدمين.

قافلة من ثلاثة بغال تسير بنسقٍ على طريق لا يتسع إلى أكثر من حافري البغل، تتجه نحو أفق مغلق بجبال شاهقة يضيئها بياض الثلج في أول الفجر. مشهد فقدَ جماله وقطعَ سيل زهوك كمناضل يلوي عنق المصاعب ويتجه للإلتحاق بصفوف الجيفاريين لخوض حرب عصابات، لاسقاط أعتى دكتاتور عرفه تاريخ العراق، بعد أن أخبركما الدليل بوجود ربية للجيش العراقي تقع على جبل، عليكم اجتيازه قبل انتشار الضوء، وما بين السفح والهاوية زلّة حافر.

كانت سهاد وهي مكبّة على البغل الذي يتوسطك والدليل تبدو كأنها سبيةُ حرب خاسرة، وليس كعروسٍ لم تنعم بلحظة زفاف تليق بأميرة تخلت عن نعيم الكسل في كنف عائلة ميسورة الحال، لا وريث لها سوى مُدللةٍ وحيدة. شعرتَ بحب كبير نحوها فعاهدتَ نفسكَ أن تكافئها على إخلاصها لك وتضحيتها، بتتصيبها ملكة على عرش قلبك.

ارتفع صوت الدليل بموالٍ كردي حزين فأدركتَ بأنكم اجتزتم موضع الخطر، فارتسم فلمُ الزهو للمناضل الرومانسي على شاشة مخيلتك، وارتفع صوتك :

مكتبة الفكر الجديد

" شايف البحر شو كبير... بكبر البحر بحبك. "

" وأين هو البحر ؟ "

سألتك سهاد، فارتفعت ضحكتك وأنت تشير إلى موضع قلبك.

في المساء وصلت القافلة إلى قرية تقع على سفح جبل. ربطَ الدليل البغال وسار يتقدمكما بين البيوت الطينية المتراكمة على بعضها. وعند باب إحدى الغرف توقف ليودعكما، فرحتَ تتطلع بوجه سهاد بحيرةٍ لم تدم طويلا إذ خرج من الغرفة شاب تبعته زوجته. رحب بكما بكلمات عربية مرتبكة ودعاكما للدخول. هواء ساخن انبعث من الغرفة فلفح وجهيكما. ارتميتما في ركن الغرفة المظلم. شعرتَ بخدرٍ في عجيزتك كأنها تورمت وانفصل جلدها عن اللحم، وهذا ما حدث لاحقاً حينما فوجئت بالجلد وقد انسلخ والتصق بلباسك الداخلي.

أدرك الشاب بذكاءٍ أو بحكم تعوده على اللقاء بالملتحقين الجدد القادمين من الجنوب، والذين أغلبهم لم يعرف تضاريس المنطقة وربما لم يرَ جبلاً في حياته، لذا فقد سارعَ إلى طمأنتكما، كاشفاً لكما الخطوة التالية أو الأخيرة في طريق رحلتكما. أشار إلى جهة الشمال موضحاً أن مقر البيشمركه التابعة للحزب الشيوعي يقع في السفح الثاني للجبل، ثم أضاف بأنكما ستذهبان إليه مع وصول أول مفرزة.

[صحراءُ، صفيرٌ وعاصفة من خوفٍ. خائفاً كنتَ.. تركضُ.. تركضُ وميازيبُ دمٍ تلاحقك وقهقهات صدام حسين. تعثرتَ.. سقطتَ على وجهك. أغمى عليك، وحين أفقتَ وجدتَ أمكَ جالسةً عند رأسكَ ككثيبٍ أسود. كانت تقرأ (سِفرَ الجامعة).]

مكتبة الفكر الجديد

استيقظتَ من الكابوس (وأنت تردد : كل شيء باطل وقبض ريح) على أصوات خارج الغرفة وحركة سحب أقسام بنادق. شعرتَ برعب كأنك مازلت في جبهة الحرب. الخيانة، أول فكرة خطرتْ في ذهنك وارتسمت أمامك صورتك وأنت تساق إلى ساحة الإعدام. دخل الشاب وهو يشير إليكما بالإسراع في النهوض لكي تلحقا بالمفرزة التي ستوصلكما إلى مقر القاطع. أول ما لفت انتباهك في أفراد المفرزة هو وجود امرأة بينهم، شابة سمراء بملامح جنوبية، قوام متناسق وأنوثة مترعة بالرقة، لكنّ الكلاشنكوف المعلقة على كتفها كان يصد النظرات الرجولية فترتدّ خجولةً. تعانقت مع سهاد بمرح أنثوي كأنهما تعرفان بعضهما منذ أمد طويل. شعرتَ بالإطمئنان لوجود المرأة على الرغم من نظرات الرفاق الصقرية التي راحت تفترس جسد سهاد، مموّهةً بعبارات الإعجاب والثناء على شجاعتها، حتى بدا وجودك ناشزاً بين الرفاق.

قطعت سهاد ترددك حينما أجابت الرفيق الذي أجرى معكما تحقيقاً، لتجيب على سؤاله الذي يتعلق بالقرار الذي اتخذتماه، حينما أخبرته بثقة ونيابة عنك :

" جئنا للإنضمام إلى فصائل الأنصار لمقاتلة النظام الفاشي. "

كنتَ سعيداً جداً حينما أخبركَ أحد الرفاق المتنفذين في المقر بأنهم سيوفرون لك غرفة خاصة لكي تقضي ليلة من كل أسبوع مع زوجتك، وستعفى من واجب الحراسة الليلية. لم تخبر أحداً بأنك لم تدخل بزوجتك حتى الآن، لكنهم علموا بأنكما جعلتما رحلة النضال شهرَ عسلكما، مما أكسبك إعجاباً كبيراً من الرفاق، حتى أن أحد الصحفيين أخبرك بأنه كتب مقالاً عنكما، سينشر قريباً في صحيفة الحزب السرية.

مكتبة الفكر الجديد

قضيتَ النهار وأنت تعدّ الدقائق لانتهائه. ذهبتَ مع الرفاق بهمّة لجلب الحطب، والبلطة على كتفك كبروليتاريٍّ متفائلٍ بحتمية التأريخ. جلستَ طويلاً في أسفل الوادي، عند العين التي تجمّد ماؤها، تعيد شريط علاقتك بسهاد منذ ابتدأت في الرحلة التي أقامها الحزب إلى طاق كسرى وحتى هذه اللحظة. مصادفة غريبة اكتشفتها وأنت تتذكر نقطة بداية الدائرة التي انتهى محيطها في أرض تقع على حدود الفرس حيث تقف الآن. مرّتْ أمامك سهاد مع رفيقتين قادمات من القرية القريبة وقد علقن البنادق على الأكتاف كمحاربات من الأمزون. كنّ يبتسمن بخبثٍ ويتهامسن عنك. لم تكن " دون قيد الميل يعدو بكَ الأغرّ"، ولكن " عرفنَك وهل يخفى القمر ". رحتَ تردد قصيدة عمر ابن ربيعة التي بقيت عالقة في ذهنك من أيام الدراسة الثانوية، بنشوة عاشقٍ محسود. سخّنت ماءً واغتسلت وسط نظرات الرفاق الحاسدة وهم يتطلعون إليك، فترتسم أمامهم صورة الرفيقة روناك (هكذا أصبح اسم سهاد)، وهي تتعرى، وكل منهم قد تخيّل نفسه العريس. بعد غروب الشمس انسللت بهدوء من حلقة الرفاق وأحاديثهم في السياسة والحرب، وعن مستقبل العراق بعد إسقاط نظام صدام حسين. دفعتَ الباب بهدوء ودخلت بحذرٍ. كانت سهاد قد نظّفت الغرفة ورتبت الفراش بلمسات أنثوية لم يعرفها المكان من قبل. رأيتها جالسةً على الفراش وعيناها تتطلعان في زوايا الغرفة بصمت، وأصابع كفيها متشابكة ببعضها بحركةٍ تدلّ على القلق والارتباك، حسبتها حالة طبيعية لفتاة تتهيأ لخوض تجربةٍ جديدة يمتزج فيها الألم بأقصى اللذة. لاحتْ على وجهها ابتسامة باهتة، زادت من هياج رجولتك التي انتظرت طويلاً كي تأخذ حقها الطبيعي من حياة ضنينة، وجدتْ في المصادفات السيئة حجة لتبرير نذالتها. جلستَ لصق حبيبتك وأنت تحيط كتفها بذراعك.

مكتبة الفكر الجديد

أحسست بارتعاشة أضلاعها وهي تلامس جانباً من صدرك. شعرتَ بحب كبير تضاءلت أمامه شهوتك. رغبة في البكاء اجتاحتك، أججتها دموع سهاد التي كانت تسيل بصمت.

" أتحبين أن نؤجل الأمر ؟ "

سألتها. فردّتْ بإصرار :

" لا. "

ثم أضافت بصوت واطئ :

" ولكن تمهل قليلاً. "

تمددتَ على الفراش، ناشراً ذراعيك، فارتمتْ سهاد جنبك، متوسدة ذراعك فأحطتها بالأخرى، ورحت تتطلع في عينيها المبللتين بالدمع. أزحتَ خصلة من شعرها عن وجهها، ممرراً كفّك على صفحة وجهها المرتعشة وعلى رقبتها. أغمضتْ عينيها، فطبعتَ قبلة بينهما. لامست شفتاك بهمسٍ شفتيها اللتين انفرجتا قليلاً بارتعاشة خفيفة. أطبقتَ شفتيك بقوة، وراحت كفك تتحرك بخجلٍ على تكويرة نهدها، فارتفع صدرها بتنهيدة. قرّبتَ وجهك من عنقها فشممتَ رائحة عطرٍ غريبٍ لا يمتّ للمكان بأية صلة. أزاحتْ وجهها قليلاً، وطلبتْ منك إطفاء الفانوس. أنزلتَ ذبالته إلى حدها الأقصى تاركاً خيط ضوء ناحلاً يرسم نقطة على السقف. تمرّيت تماماً واندسست تحت الغطاء. ضممتها بقوة ويدكَ تعرّي صدرها. تسلقتَ جسدها بحذرٍ. فارجاً ساقيها ببطء. كانت تغطي عينيها بذراعها وتجز على فكيها المرتعشين. أحسست بأمرٍ غير طبيعي وأنت تدخل فيها، فلم تكن رطبةً، بل تحول جسدها إلى قطعة من الثلج. ظلت جامدةً لا تبدي أية حركة أو ردة فعلٍ.

مكتبة الفكر الجديد

ولم تشعر حتى " بوخزة دبّوس " كما كان يردد البعض، واصفاً لحظة افتضاض غشاء البكارة. احتضنتها بقوة، فلم تبدِ أية ردة فعل تجاهك. رحت تقبل وجهها، فأحسست بسيل من الدموع ينحدر من عينيها. انسحبتَ بهدوء. رفعت ذبالة الفانوس، وقربته بين فخذيها. لم ترَ شيئاً. ارتجفت كفك حتى كاد الفانوس يسقط، بل كنت ترغب في أن يسقط الفانوس بناره وزيته لتحترقا ويحترق السرّ.

آخر شيء كنت تتوقعه، فأنت تعرف سهاد منذ سنتها الأولى في كلية الآداب، وليس من المعقول أن تكون قد مارست الجنس وهي دون سنّ الثامنة عشرة. طعنةٌ توغلت في صدرك وأنت تصل إلى هذا الاستنتاج، الذي يعني أنها خانتك يوماً.

تركتَ الغرفة وذهبتَ إلى حيث سارت قدماك غير آبهٍ ببرد كانون الأول والثلج الذي يصل حتى ركبتيك. جلستَ عند حافة الوادي، متحاشياً أن يراك الرفيق الخفر فيستبد به الفضول لمعرفة سبب تركك لزوجتك في مثل هذا الوقت. قبل الفجر عدتَ إلى الغرفة، فوجدتَ سهاد وقد تكورت في زاوية الغرفة متدثرة ببطانية مهترئة، رأسها بين ركبتيها وشعرها منفوش وغطى وجهها حتى لامست أطرافه الأرض. تجلس بانكسارٍ كمغتصبة وكتفاها تختضّان. تطلعتَ إليها بحيادٍ. لم ترفع رأسها نحوك. رميتَ نفسك في الزاوية المقابلة على أرضية الغرفة الرطبة، وتكورت كجنين لا يريد مغادرة رحم أمه، حتى استيقظتَ على صوت الرفاق وهم يسحبون أقسام بنادقهم. حاولتَ النهوض، فخذلك جسدك.

ثلاثة أيام مرت وأنت ترتعش من الحمّى. زارك رفيق ممرض، وأخبر سهاد الجالسة عند رأسك تضع على جبهتك كمّادات باردة، بأنك

مكتبة الفكر الجديد

تعاني من التهاب حاد في اللوزتين. ثلاثة أيام، لم تفارقك سهاد لحظة. كانت تعطيك حبوب البنسلين وتعد لك شوربة وتطعمك بصمت، كأنكما أخرسان.

بعد أن أنهيتَ نوبة حراستكَ، ابتعدتَ قليلاً عن مقر القاطع باتجاه الوادي الذي تقع القرية على السفح الثاني للجبل المقابل لك. جلستَ على الحافة، متكوراً على نفسك ومتدثراً بمعطف عسكري، أعارك إياه أحد الرفاق، مركّزاً نظراتك على قمة الجبل الذي أمامك وقد احمرّت السماء خلفه، مبشّرةً بشمسٍ مشرقةٍ بعد يومين هطل فيهما ثلج غزير غطّى السفوح وقامات الأشجار التي بدت كأنها أشباح موتى يقفون بأكفانهم. ألقيت بندقيتك جانباً. أخرجتَ كيس التبغ، ورحتَ تلفّ سيجارةً ببطء شديد، كأن أصابعك تتحرك دون إرادةٍ منك، وأنت تتطلع ساهياً إلى نقطةٍ بعيدةٍ في الآفاق المغلقة بسلسلةٍ من الجبال البيض. مرّ رفيق قربك. خاطبكَ وهو يتثاءب، محذّراً إياك من إطالة الجلوس في هذا المكان، وبخبرة مقاتلٍ قديم أخبرك بأن طائرات الجيش العراقي والسمتيات تغير على قطعات الأنصار في مثل هذا الوقت. لم تعر تحذيره اهتماماً. مكتفياً بهزّةٍ من رأسك.

أشرقت الشمس فانعكس ضياؤها على الثلج في مشهدٍ، كان يمكن أن يكون باهراً، لولا أن صقيع روحك قد أرمدَ جذوةً احساسك بالجمال.

حفيف ملابس، ووقع خطوات تعرفها جيداً يقترب منك. افتعلتَ السَرَحان (هههههه.. هل تذكر يا سامي، أنك اخترت سرحان ليكون اسمك الحزبي ؟ وحينما سألتك سهاد عن سبب اختيارك لهذا الاسم أجبتها بزهوٍ، لكي أكون ذئب الجبال). جلستْ سهاد أو روناك قربكَ

مكتبة الفكر الجديد

حتى لامسَ كتفها كتفك، وهي تزفر بخاراً كثيفاً من فمها، وتفرك كفيها. تحركتَ قليلاً مبتعداً عنها بإشارة عفوية. هممتَ بالنهوض، إلا أن سهاد وضعت يدها على فخذكَ، فمددتَ إلى جلستكَ، ولكن دون أن تلتفتَ إليها.

" اسمعْ.. يا سامي. "

قالت وهي تتطلع إلى النقطة البعيدة في الأفق الأمامي حيث كنت تتطلع. لم تجبها، فكررتْ جملتها بحشرجة وغصّة. التفتَ إليها، فرأيتَ عينيها غارقتين بالدمع. وضعتَ رأسكَ بين كفيك المرتعشتين وأنت تحدّق إلى الأرض.

" لا تعذبْ نفسك... حبيبي. "

" حبيبي !؟ "

قلتَ ساخراً، فارتفع نشيجها، وهي تعضّ راحة يدها بقوة. ولكي تُنهي حالة الارتباك، قلتَ، محاولاً أن يكون صوتكَ حاداً :

" لماذا جئتِ ؟ وماذا تريدين مني ؟ "

تنحنحتْ سهاد لتزيلَ شيئاً توقف في حلقها. وردّت عليك محاولةً افتعال الثقة :

" لا تعذبْ نفسكَ !... خذْ أي قرارٍ يلائمكَ... وأنا سأطيعك. "

كان كلامها أقسى عليكَ من سبب تعاستك، حيث كنتَ عاجزاً عن اتخاذ أيّ قرار. وأيّ قرار يمكن أن تتخذه وأنت محاصرٌ في دائرة من النار مثل عقرب ؟. أدركتْ بكيدها الأنثوي بأن عقلك المشوّش غير قادرٍ على اتخاذ القرار، فاستعادتْ ثقتها بنفسها. وضعتْ كفها على كتفك،

مكتبة الفكر الجديد

وقالت بكبرياء محكومٍ بالإعدامِ، لم يبقَ بينه وبين الموت المحقق سوى لحظاتٍ يتظاهر فيها بالشجاعة ليتركَ أثراً في نفس جلاّده.

" أمامك خيارات كثيرة.. أن نكونَ رفيقين فحسب.. أو صديقين.. أو أن تذهب إلى إيران وأنا أعود إلى بغداد.. أو... "

غصّت قبل أن تكمل جملتها، ثم انفجرت ببكاءٍ لم يستطع كبرياؤها إيقافه، فقالت بعد أن استردت أنفاسها، بصوتٍ محتضرٍ يتلفظ جملته الأخيرة :

" أو ارمي الآن نفسي في الوادي... أو أطلق على رأسي رصاصة. "

التفتَ إليها وتطلعتَ في عينيها، بنظرةٍ واخزة، فتطلعتْ إليك بالنظرة ذاتها، كأنها تقبل التحدي وتؤكد بإصرار ما قالته، وحينما أغمضتَ عينيك كأنك استوعبت الرسالة، قالت بشيء من الرقة والإنكسار :

" ولكن ليس قبل أن أطمئن عليك.. وأتأكد من سلامتك. "

سادتْ فترة صمت بينكما، ولكيلا تعطيها فرصة للتفوق عليك برقتها المفتعلة، سألتها بغضب وأنت تقطّب جبهتك:

" لماذا خنتِني ؟ "

" لم أخنكَ. "

قالتْ، ثم أسرعتْ في الحديث، كأنها مسكتْ طرفَ خيطِ أملٍ في الدفاع عن براءتها :

" حدثَ الأمر قبل أن أعرفك. "

صمتتْ قليلاً، ثم أضافتْ :

مكتبة الفكر الجديد

" حينما كنتُ في مرحلة البكالوريا . "

" مع مَنْ ؟ "

سألتَ بطريقة محقق يحاول سحب اعترافٍ من الواقف أمامه بعد أن بدا خطو انكساره والاستعداد على الاعتراف. تنهدتْ سهاد بحسرة، وأجابت بصوتٍ واطئ :

" مع صارم.. جارنا .. مدرّس التاريخ.. الذي كان يعطيني دروساً خصوصية قبل خوض امتحان البكالوريا . "

" هل اغتصبك ؟ "

سألتها، كأنك تبحث عن حجةٍ لتغيير موقفك، فردّت :

" لا . "

" إذاً كنتِ على علاقة به! .

" نعم. "

أجابت، ثم أضافت بحزنٍ :

" كنتُ مخدوعة به.. خدعني بثقافته وسعة إطلاعه.. كنتُ أحسبُ كلّ شيوعيٍّ إنساناً شريفاً .. وكلّ شيوعيٍّ مخلصاً لمبادئه وأفكاره... كنتُ مراهقةً.. مندفعةً بهذا الاتجاه.. واستغلني بحديثه عن المرأة والتحرر والمساواة. "

سادتْ فترة صمت بينكما، قطعتها سهاد، وهي تردد بسخرية :

" هه.. بعد أن حصل على غايته تركني وتزوجَ ابنة عمّه... وحجّبها ... وحين ذكّرته بخسارتي ردّ عليّ بكلامٍ سخيف. "

مكتبة الفكر الجديد

" ماذا قال ؟ "

سألتَ ببلاهةٍ، فردّت سهاد بسخرية :

" قال لا أثق بامرأة تعطي نفسها بسهولة.. فالتي تعطي نفسها لي ستعطيها لغيري. "

ارتفع صوت نشيجها . امتدتْ يدكَ دون إرادة منك، وأحطتَ كتفها، فألقت رأسها على صدركَ وجسدها يختضّ بانفعالٍ شديد . أسندتَ رأسكَ على رأسها حتى بلل دمعكَ شعرها، نازلاً على جبهتها . رفعتْ رأسها وقالتْ بشفتين مرتعشتين :

" أحبك.. ولا أريدكَ تتعذب بسببي. "

" ولكنك خدعتني يا سهاد.. لم تخبريني بهذا الأمر طيلة السنوات السبع.. سنوات حبنا . "

" لم أخبرك.. لأني أحببتك.. وكنت خائفة من أنك ستتركني لو أخبرتك.. فقد كانت بيني وبين الرجل هوّة من الشك وسوء الظن.. يصعب ردمها . "

فجأة تذكرتَ أمراً كان لغزاً عجزتَ عن حلّه، فسألتها :

" وهل كانت أمك تعلم بذلك ؟ "

" نعم. "

قالت، لكنها استدركتْ سريعا :

" أخبرتها بعد أن رفضتْ بإصرار أن تتقدم لي.. ورفضتُ عدداً كبيراً من الرجال الذين تقدموا لخطبتي. "

مكتبة الفكر الجديد

هززتَ يدك استخفافاً، وقلتَ :

" لهذا السبب غيّرتُ طريقة تعاملها معي.. ولهذا السبب أصرّت على أن نعقد قراننا .. لتكون وثيقة زواجنا شهادة براءة لك.. بعد أن أكون قد قُتلتُ في جبهة الحرب. "

هزّت سهاد رأسها مؤكدة كلامك. فرحتَ تردد بحزن :

" كم كنتُ مخدوعاً إذن ! "

نكّست سهاد رأسها خجلةً، ثم قالتْ :

" أمي إنسانة فارغة.. أنانية.. لا يهمها غير مصلحتها .. والمباهاة أمام الآخرين بأصلها وعشيرتها .. وإدعاء الشرف. "

أخرجتَ كيس التبغ ورحتَ تلفّ سيجارةً، نفثتَ دخانها فكان كثيفاً مختلطاً بالبخار. امتدتْ يد سهاد وانتزعت السيجارة من بين إصبعيك. أخذتْ منها نفساً عميقاً، فاختنقتْ بالدخان، فرحتَ تربت ظهرها حتى توقفتْ عن السعال. تطلعتَ إليها وقد استعدتَ شيئاً من اتزانك، وخاطبتها بقرار حازم :

" لنتركَ كل شيء وراءنا . "

ارتسمت على وجه سهاد ابتسامةٌ خجولة، وومضَ بصيص فرح في عينيها، ولكي توضّح لها ما عنيت، كررتَ جملتكَ، مضيفاً إليها :

" لنتركَ كل شيء.. كل شيء.. الماضي.. الحزب.. العراق.. ولنذهب إلى إيران.. ومنها يمكننا السفر إلى أوربا . "

هزّتْ سهاد رأسها موافقةً وقد اتسعتْ ابتسامتها، وقالت :

" أنت إنسان كريم وشهم.. وكنتُ واثقة من ذلك. "

مكتبة الفكر الجديد

وبشيء من الانكسار أضافت بصوت واطئ :

" وسأكون لك زوجةً.. و... "

توقفتْ قبل أن تكمل جملتها. تناولت كفّكَ وطبعتْ عليها قبلة طويلة، فسالَ الدمع على رسغكَ وذراعك، بينما أنت كنتَ تمسد شعرها باليد الأخرى. فجأةً رفعت رأسها وقالت :

" يلاّ.. لا يصح الجلوس هنا فأنت مازلتَ لم تكمل دورة البنسلين."

نهضتْ وهي تمسك يدك.

بعد يومين أخبرتما الرفيق سرياز بقراركما. لم يسأل عن السبب واكتفى بأن نادى على أحد الرفاق وأشار إليه بحركة من عينيه. قام الرفيق بانتزاع البندقيتين من كتفيكما، ثم قال الرفيق سرياز دون أن ينظر إليكما، منشغلاً بتنظيف بندقيته :

" أنتما الآن حرّان.. بإمكانكما الذهاب إلى أية جهة تشاءان.. ولا مسؤولية للحزب على سلامتكما. "

ولكي يؤكد كلامه، قال بطريقة لا تخلو من عجرفة واستفزاز :

" نضالنا طويل ولا يتوقف على بضعة أشخاص. "

وقبل أن تغادرا، خاطبكما بلهجة تفتعل شيئاً من الود :

" بإمكانكما الانتظار في ضيافتنا.. لحين مرور مفرزة متجهة إلى الحدود الإيرانية.. والذهاب معها. "

هززتما رأسيكما علامة على الشكر، لكنه عاد مستدركاً كلامه :

" ولكني أنصحكما بالتريث.. فلا أعتقد سيكون الأمر قريباً وسهلاً.. فالطرقات مغلقة بسبب الثلج.. والجحوش ومفارز اليكتي وجماعة قاسملو منتشرة في القرى المحيطة بنا.. وإذا وقعتما في أيديهم سيسلمانكما إلى قوات النظام. ".

مكتبة الفكر الجديد

عاد إليك الشعور بالخوف حينما اكتشفتَ بأنك مازلتَ في دائرة الرعب من سطوة النظام ومرتزقته، ولكي تبدو ثابتاً أمام سهاد سألتها:

" من هم اليكتي ؟ "

" جماعة جلال الطالباني. "

أجابتْ، دون أن تبدو على وجهها علامات الخوف أو المفاجأة، فقد كانت سهاد أكثر فضولاً واهتماماً منك، إذ أنها استطاعت خلال الأيام القليلة أن تجمع معلومات عن المنطقة والطرق والأحزاب السياسية التي تتصارع في ما بينها، لذلك حينما سألتها عما يتوجب عليكما فعله أجابت بثقة:

" سنذهب إلى القرية.. ومن هناك نستأجر دليلاً يوصلنا إلى أقرب مدينة إيرانية. "

ولكي تزيد من إطمئنانك، فتحتْ حقيبتها فرأيتَ فيها رزمة كبيرة من الأوراق النقدية الحمراء، فئة الخمسة دنانير. ولتكتشف بعدها أن سهاد قد خططت للأمر بشكل متقن، حاسبةً لكل أمرٍ حسابه، من استئجار الدليل والبغال إلى تبديل الدنانير العراقية بالتومانات الإيرانية، والمسافة التي تفصل بينكما وبين أقرب مدينة حدودية، وحتى تحضير الإجابات على أسئلة المحققين الإيرانيين.

بعد ثلاثة أيامٍ انطلقت قافلتكما الصغيرة يتقدمها شاب كردي مشياً، بينما أنت وسهاد تمتطيان بغلين يخبّان بغريزة حيوان ذكي كأنهما يعرفان الطريق. ارتدت سهاد فستاناً كردياً زاهياً، كانت قد اشترته من القرية، ارتدته على بنطالها الجينز، وغطّت رأسها بشالٍ أسود. نظرتَ إليها فلاحَ على صدرها السلسال الذهبي والدولفين. أدركتْ خط نظرك فمسكت الدولفين ورفعته إلى فمها لتقبله ككتاب مقدس. أزالت حركتها هذه شيئاً مما تراكم في نفسك من غضب.

مكتبة الفكر الجديد

بعد سير متواصل ليومين تخلله مبيت ليلة في إحدى القرى الإيرانية، وقفتم على قمة جبل عالٍ، يلوح أسفله طريق ترابي بدا كأنه خيط متعرج. أشار الدليل إلى أن مهمته انتهت هنا، ولا يستطيع أن يخطو أبعد من هذا. شعرتما بشيء من الارتباك والشك حتى لاحت أمامكما سيارة عسكرية، عندها صافحتما الدليل بفرح. قدمتَ له المبلغ الذي اتفقتم عليه، فأخرجت سهاد ورقة من فئة الخمسمائة تومان وقدمتها إليه إضافة إلى المبلغ، فتناولها وهو يهز رأسه فرحاً.

حينما غادر الدليل وغاب في منعطف الطريق، تطلعتَ إلى سهاد ناشراً ذراعيك كنورسٍ يهمّ في الطيران، فارتمت سهاد بينهما، وغبتما بقبلة طويلة لم تنفصل شفتاكما حتى سبح وجهاكما بسيولٍ من الدمع. تشبثتْ بذراعك وأنتما تخطوان بحذر على المنحدر الثلجي. تزحلقتما. سقطتما على ظهريكما ثم انحدرتما بسرعة كبيرة وأنتما تضحكان بنشوة طفلين.

على الطريق الترابي أحاط بكما ثلاثة جنود بلحى طويلة. رحبوا بكما بحركاتٍ من أيديهم ورؤوسهم وبكلامٍ لم تفهما منه سوى بضع مفردات. بعد دقائق وصلت سيارة جيب عسكرية. هبط منها شاب برتبة ملازم ثان. مد يده نحوك مصافحاً وهو يردد بعض الكلمات العربية، وحينما مدت سهاد يده إليه، امتنع عن مصافحتها وهو يشبك ذراعيه على صدره، هازاً رأسه. انطلقت بكما السيارة في طريق متعرج انتشرت عليه حفر وصخور، وتراكم الثلج على طرفه المحاذي للوادي. عرفتما من القطع المعدنية المثبتة على الطريق بأنكما في الطريق إلى مدينة بيران شهر التي ستقضيان فيها ليلتين في ضيافة عائلة أحد عرفاء المخفر، ومنها إلى مدينة أرومية.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

مكتبة الفكر الجديد

رأيتني أقفُ في طابورٍ طويلٍ، الواقفون فيه كلهم يحملون وجهي. حينما جاء دوري لشراء ما لا أعرفه، وجدتُ أن البائع هو الآخر يحمل الوجه نفسه. حدّق إليّ. كانت عيناه مسمولتين. قال وهو يفتح كفيه أمامي :

" نفدت الأقنعة. "

جفلتُ على ضربة خفيفة على خاصرتي. انتبهتُ إلى الشرطي الجالس جنبي، فرأيته يضحكُ. بينما السائق كان يتطلع إليّ في المرآة الصغيرة، وحينما سألتُ عن السبب الذي دفعه إلى ضربي، قال :

" يا لكَ من أبله..... أنت تشخرُ مثل خنزير عجوز. "

تطلعتُ إليه بغضب، فراحَ يربت كتفي باستصغار. أزحتُ كفّه عن كتفي، فارتد قليلاً، وبلهجة محايدة خاطبني :

" أيها السيد، أمامك أربع عشرة سنة.. وبإمكانك أن تنام ما شئتَ. "

لا أدري، متى غفوتُ وكم طالت غفوتي، ولولا الكابوس الذي لا تزال خيوطه عالقة في أهدابي لما صدقتُ ما قاله الشرطي. شعرتُ بوخزة في روحي للتشبيه الذي أطلقه الشرطي، ولما قاله مذكّراً إياي بالسنوات التي سأقضيها في السجن، والتي ربما لم يتح لي العمر متسعاً لإتمامها، لكني لم أكن حزيناً، بل على العكس، كنتُ أشعر بأن السجن سيكون البرزخ الذي سيطهّرني من حياة كاذبة عشتها مثل كابوس.. لا، ليس تشبيهاً بل هي كابوس حقيقي رافقني منذ طفولتي البائسة.

لم يستطع البُعد آلاف الأميال عن مكان موتي أن يشعرني بالأمان، بل استيقظ جسدي على الذكريات المؤلمة كأنها تآليل وقروح تفجّرت

مكتبة الفكر الجديد

لتنزّ دماً أسودَ. ذكريات حسبتها ماضياً لكنها ما لبثت أن عادت كأن أحداثها قد جرت بالأمس، لتتحول إلى كوابيسَ سودٍ، فكنتُ كأني أنام بكوابيس مفتوحة وأفيق على كابوس الغربة، فلم أعد أميّز النوم من اليقظة، ولا الكابوس من الواقع.. حتى أدمنتها، بل أصبحتْ أنيساً لي، أكسر بها رتابة يومي، خاصة بعد أن استنفدتُ ما في ذاكرتي من أحداث، فصرتُ أرى أحداثاً بعين مخيلتي، التي هي الأخرى بدأت تجفّ شيئاً فشيئاً، لولا الكوابيس والأحلام التي كانت تزورني كل ليلة وتشحن مخيلتي بقصص قصيرة أقراها في كتاب النوم أو تُملى عليّ من صوت يأتي من جهة مجهولة. أتذكر بعضاً منها وأنسى البعض الآخر، بل تمرستُ على ترويضها والسيطرة عليها، حتى كنتُ أحياناً أعود إلى النوم، لا لشيء إلا ظناً مني بأني أستطيع الإمساك بآخر خيوط الكابوس كي أكمله حتى النهاية، أو أغيّر في مجرى الحكاية. قد أنجح في ذلك، وإنْ لم أنجح فأني أجترح نهايةً وفق مزاجي اليومي. أعيده مرات عدّة حتى أصدّقه، مهما بلغت غرابته أو تنافرُ أجزائه. أشعر بفراغٍ مدوٍ حينما تنقطع الكوابيس عن زيارتي، خاصة بعد أن تجاوزت مرحلة الكابوس المتكرر، وأصبح منامي كريماً بإبداع أنواع أخرى من الكوابيس، منها ما يحوي إشارات ورموزاً يمكن إيجاد روابط بينها وبين ما مررتُ به من أحداث، ومنها ما لا علاقة له بي من قريب أو بعيد، غير الذي اعتدتُ عليه طويلاً منذ وصولي وسهاد إلى هذه المدينة النائية على طرف الكرة الأرضية الشمالي، بل منذ وصولنا إلى مدينة أرومية الإيرانية ولم يمض على خروجنا من كابوس الواقع سوى يومين، حينما استيقظنا في لحظة واحدة بعد ليلة لوينا فيها ذراع الفرح وجعلناه يقيم بيننا بضع دقائق انتزعناها من أزلٍ لا محدود، لنروي لبعضنا الكابوس نفسه وإنْ اختلفت بعض تفاصيله.

مكتبة الفكر الجديد

[أعود إلى العراق، فأجدُ نفسي قد وقعتُ في قبضة مطارديَّ بعد مطاردة لا أعرف كم تستغرق من الوقت في حساب الأحلام. أجتاز خلالها أسواقاً وساحاتٍ وشوارع تفضي إلى أزقةٍ تفضي هي الأخرى إلى أزقة أضيق منها. أرى وجوهاً أعرف أدق ملامحها، وجوهاً سملَ الحقد عيونها وخطَّ الكيدُ تجاعيده عليها، تحيط بي وأنا أركض في اللاإتجاه.. أركض.. أعثر.. أسقط.. أنهض.. أركض.. أركض.. حتى ينتهي الركضُ بي إلى زقاق مغلق، أرتطم بجداره، أتوقف عنده لاهثاً، لمواجهة مصيري الذي أعرفه دونما شكّ، أنظر إلى إرتفاع الجدار وفي نيتي القفز عليه، فلا أرى نهاية له، ربما يصل إلى السماء. فاستسلم كغزالٍ جريح في دائرةٍ من الضواري، يحيط بي رجال يرتدون أقنعة لذئاب وضباع وكلاب مسعورة، يقبضون عليّ، أستسلم لهم دون مقاومة، يلوون ذراعيّ إلى خلف ظهري، يكممون فمي بشريط لاصق، يعصبون عينيّ بخرقة لها رائحة البول أو الدم، يسحلونني من ياقة قميصي، أسمع زغاريد نسوة تتعالى من شرفات وشناشيل بيوت قديمة، وهتاف رجالٍ بأصوات متحشرجة، داعين بصراخٍ هيستيري إلى إعدام الخونة والجبناء الذين باعوا ضمائرهم وارتضوا بفتات موائد الأجنبي، بينما أنا أشعر بالندم على ما جنيته بحق نفسي حينما تركتُ تلك المدينة الآمنة والعودة إلى هنا بمحض إرادتي لأسلّم رقبتي إلى جزّار الرعب الذي هربتُ منه قبل سنوات، يربطونني إلى عمود الكهرباء، يتعالى صوت سحب أقسامِ عشرات الرشاشات والمسدسات، صمت عميق، ثم يطلقون الرصاص الذي يختلط أزيزه بزغاريد النسوة، لكن.. قبل أن تصل الرصاصة إلى جبهتي أو صدغي أكون قد استيقظتُ.]

استيقظ مرعوباً، لأجدني في فراشي، سابحاً في عرقي، بعيداً بآلاف الأميال عن مكان الرعب، فأردد مع نفسي العبارة الأليفة :

مكتبة الفكر الجديد

" أووووه.. ما أرحمَ المنفى.. ما أقسى الوطنَ. "

مرةً، أخبرتُ أصدقائي عن الكابوس الذي يتكرر كل ليلة، ففوجئت بأن جميع أصدقائي قد رأوا الكابوس نفسه، مع اختلاف طفيف في التفاصيل، حينها أدركتُ بأن الأمر لا يخصني وحدي، ولا يتعلق بمقدار الشجاعة أو الجبن اللذين يجعلان الإنسان مرتعباً من أمر مضى عليه زمن ليس قصيراً، وبرغم الإقامة في مكان انتفت فيه أسباب الموت غير القدرية، وحتى الوجوه المرعبة لم يعد لها من وجود، وإن كنتُ ألمح شيئاً من تفاصيلها في ملامح بعض من أصادفهم في هذا المكان، كالعيون الجاحظة والنظرات المستريبة أو الشوارب الكثة التي تغطي أفواها مزيدة، تلوح عليها آثار مخاط يابس أو صفرة التدخين، أو ما أسمعه من عبارات تذكّرني بالقاموس الذي كان رجال الكابوس يحفظون مفرداته كحفظهم لأسمائهم " منيوك، اخو القحبة، كس أختك، أنيك عرضك، أشق طيزك... الخ ". إلا أني كنتُ أدرك تماماً بأن ما أراه من تشابهٍ بين هذه الوجوه وتلك ما هو إلا هاجس مازال الخوف المتكلس في روحي يفرضه علي، فهم ضحايا عنف الوطن البعيد الذي مازالت كوابيسه تطاردهم.

" الوطن. "

رددتُ مع نفسي، كأني اكتشفت أسباب العلّة، مصمماً على معالجة النفس ببترِ هذا الجزء المعطوب من الجسد كي يتخلص من الغرغرينا التي بدأ زحفها على الروح.

" أنت تهرب من أصل المشكلة.. تبرر جبنكَ وهزيمتك.. بإلقاء اللوم على فكرة غامضة تدعوها الوطن.. أنت تحاول الهرب من نفسكَ... إنك أدمنتَ الهروب.... "

مكتبة الفكر الجديد

كانت أصوات في داخلي تنفلت لتتحول سياطاً تجلدني، وتوقظني من غفلتي التي اخترتُ أن أواريها بالنزق وإلقاء اللوم على الآخرين. لم أجد جواباً سوى أن أداري اندحاري أمام الصوت بحجة وجدتها مقنعة :

" وهل أنا سوبرمان كي أقف أمام جيوش الخراب وحدي ؟ "

كان صوت رحيم بي يأتي أحياناً، مشفقاً على ضعفي :

" معك حق.. عشْ حياتك ما دمتَ لا تستطيع أن تفعل شيئاً.. فآلهة الخراب كثر.. والحياة جميلة.. الإنسان ضعيف أمام هذا الموج المتلاطم للكراهية والعنف.. لا تدعْ نعمة المصادفات تفلت منك.. عش ما أنعمتْ عليك المصادفة به..... "

ثم يعود الصوت مؤنباً ومحذراً :

" لكن.. إياك أن تكذب على نفسكَ بإدعاء تأريخ للبطولات.. أو... "

حاولتُ طي صفحة الماضي الذي هو سبب الخراب. استطعت أن أغلق أذنيّ عن سماع الأخبار القادمة من هناك التي غدت كوابيس، لا جديد فيها، فالحرب التي هربتُ منها توقفت لكنها أنجبت حروباً أخرى، ولا بصيص أمل في سقوط نظام القتل والرعب، حتى الأغاني العراقية التي كنت مولعاً بها، أرددها مع نفسي منذ أول لحظة بعد استيقاظي لم تعد تطربني، ولم تعد تخطر في ذهني إلا وأنا واقف تحت الدش أو في لحظات اختبار الذاكرة، خاصة وأن سهاد لم تحفظ أغنية عراقية واحدة، بل كانت تردد أغنيات مصرية ولبنانية. تحاشيتُ المرور بأماكن تجمع العراقيين كيلا يسحبني حنينٌ تفرضه اللغة إلى فخ الوطن ـ الكابوس. فعلتُ ما كان محرماً أو مستهجناً بمتعة تفوق متعة الفعل شربتُ كلّ أنواع الكحول. جرّبتُ الحشيشة والمارجوانا. خنتُ سهاد في

مكتبة الفكر الجديد

السرّ مع عاهرات أو مع عجائز يائسات. التهمتُ لحمَ الخنزير بشهية مبالغ فيها، أطلتُ شعر رأسي وربطته كذيل الحصان. ثقبت شحمة أذني، لكني لم أجرؤ على وضع قرط، لسبب أجهله على الرغم من رغبتي الشديدة في فعل ذلك. بلى... للأمر حكاية طريفة، فقد قمتُ أول الأمر بثقب إحدى أذني. لم أنتبه للنظرات الغريبة والابتسامة الماكرة التي ارتسمت على شفتي العاملة الشقراء التي قامت بثقب أذني، بل شعرتُ بنشوة، ظناً مني بأن العاملة قد تعاطفت مع رجلٍ يسعى إلى الاندماج في المجتمع الجديد. اشتريتُ من المحل نجمة فضية صغيرة لا تكاد تُرى ووضعتها في أذني اليمنى، ثم غادرت المكان بزهو من أحرز انتصاراً.

" الحضارة أنثى. "

رددتُ مع نفسي كأني أحاول الرد على ما أتوقع من ردود فعل يبديها أبناء بلدي الذين راح البعض منهم، بل أغلبهم يبالغ في التمسك بهويته وتقاليده من أول يوم لوصوله إلى الدنمارك، خوفاً من الضياع في بحر المجتمع الجديد الذي لم يجدوا فيه ما يجعلهم ينحازون إلى ماضيهم سوى أوهام يختلقونها عن ذلك الماضي.

" أبو القرط. "

كنية أطلقت علي، كان صداها يعادل ما سمعته من قبل، مثل " أبو الأيورة " أو " أخو القحبة "، لكني كنت أقابلها باللامبالاة أو السخط، مشفقاً على من يطلقها. كنتُ أعرف أن مطلقيها يحسدونني على اجتياز حقل الألغام التي زرعها الماضي في طريقهم، لكنهم لا يعترفون بالحقيقة (أو هكذا حسبت).

كانت سهاد سعيدة بهذه التحولات أو أنها كانت تتظاهر في ذلك. إذ كانت تشعر بالإطمئنان وأنا أسعى إلى طي صفحة الماضي.. بكل

مكتبة الفكر الجديد

إشكالاته وتفاصيله، على الرغم من أنها لم تجارني بل بقيت كما
محافظة على سلوكها الشرقي، خاصة بعد ولادة روزا، حتى أفكارها
المرأة والمساواة كانت تطرحها بحذر شديد، وحينما يتم التطرق
الحرية الجنسية في المجتمع الدنماركي أو مسألة غشاء البكارة، يا
شيء في داخلها، وترتدّ كأنها في مواجهة هوّة سحيقة، محاولةً تغ
الموضوع.

حكاية القرط لم تنته عند هذا الحد، فقد كنت أشعر بأن ش
تغيّر في سلوك الناس وهم يتطلعون إلي. في الشارع كان الش
يتهامسون والعجائز يشحن بوجوههن عني وعليها علامات امتعا
واضحة. رجال من نوع خاص وحدهم يقتربون مني بل يحاو
الالتصاق بي بشكل أثار ريبتي وأعادني إلى أيام طفولتي وصباي وذكّر
بتلك الوجوه الكالحة التي كنت أراها في أبواب دور السينما أو ء
شاطئ النهر، حتى تأكدت من الأمر حينما أخبرني أحد العار
ببواطن الأمور بأنّ وجود القرط في الإذن اليمنى إشارة إلى شذوذ الر
جنسياً. تطلعتُ إلى وجهي في المرآة وانفجرت ضاحكاً. في اليوم الت
ذهبت إلى العاملة الشقراء نفسها لتثقب شحمة إذني الثانية. لم أع
على وضع قرطين حتى التحم الثقبان ولم يبق لهما من أثر سوى ذك
تثير الضحك، لكني بقيت مصراً على استنتاجي :

" الحضارة أنثى. "

كنت أردد وأحاجج من يستهجن ويعترض على سلوكي، ولكي أ
استنتاجي، أقول :

" ألم تروّض المرأة أنكيدو ؟ .. ألم تخرجه من وحشيته وبدائيته
الحضارة ؟ "

مكتبة
الفكر
الجديد

عندئذ كنتُ أرى وجوه أبناء وطني وقد ارتخت عضلاتها المتشنجة بحركة بطيئة تدل على رضوخ للحجة، بدءاً من استيعاب على مضض حتى الإتفاق وإظهار الحماسة، حيث لم تعد لهم حجة في مقارعة الأسطورة التي يفاخرون بأنهم ينتمون إلى موطنها.

كنتُ أشعر بنشوة انتصار كأني أثأر من ماضٍ حرمني من متعة التمرد، فكان يرتسم أمامي وجه أبي الغاضب ويده التي جعلت من العقال سوطاً يشهره نحوي لكنه لن يصل فيرتد خائباً، غاضباً وهو يضرب رأسه وصدره حسرةً على هذا الصبي العاق الذي شق عصا الطاعة، أو أن أرى معلمي الريفي مزبداً يحرك فمه لكن صوته يغيض في داخله، فيبدو كأخرسَ يكابد كي ينطق جملة أو صرخة. ترتسم أمامي صورة رجل دين بلحية بيضاء تغطي صدره، واقفاً على المنبر وهو يصرخ أمام الوجوه البليدة التي اشرأبت أعناقها تصغي إلى زعيقه :

" الشيوعية كفر وإلحاد .. الشيوعيون مسوخ فاسقة .. يحللون الحرام ويحرّمون الحلال .. لا يقيمون وزناً للأخلاق والعفة .. فبناتهم يمارسن الجنس قبل الزواج .. يشربون الخمرَة ويأكلون لحم الخنزير .. ومن يأكل لحم الخنزير يفقد غيرته .. فيضاجع أمه وأخته. "

أمدّ له لساني ساخراً وأهربُ مثل طفلٍ نزقٍ. أطلّ من شرفة عالية، فأرى تحتي عدداً كبيراً من رجال الأمن والانضباط العسكري يدورون حول قلعتي، بحثاً عن مدخل يصلهم إلى الهارب، لم يجدوه، عندها يرفعون رؤوسهم متوعدين، شاهرين مسدساتهم وهراواتهم، فأخرج لهم قضيبي وأمطر وجوههم، فيولون هاربين. أضحك.. اضحك..

لكن...

مكتبة الفكر الجديد

الكابوس لم يتوقف، ربما بسبب تناسل آلهة الرعب فقد تشتت التفكير، ولم يعد لإله رعبي ملامح واضحة. تحولت هذه الملامح إلى رموز ترتسم على جدار مخيلتي كأصباغ طفل عابث. عادت الكوابيس بعد إجازة قصيرة ولكن بتنوعٍ وخصوصية، يضرب جذر رمزيتها بعيداً في أرض الخيال، وإنْ بقي هاجس المطاردة والذبح يأخذ حيزاً كبيراً من مساحة كوابيسي، غير أن الجديد في هذه الكوابيس هو أني كنت أراني مساهماً فيها، ولم أعد الضحية أو الذبيح، ففي أحيانٍ كثيرة كنتُ أراني أقوم بدور القاتل المتلذذ بتعذيب ضحيته. بلغ الأمر بي أني كنت أجترح لنفسي كوابيس استلها من ماضيّ وأقلب فيها الأدوار، كأن أتذكر المأزق الذي نجوتُ منه وأنصب شركي لعدو أرسم ملامحه وفق ما مرّت علي من وجوه وحكايات. أطارده، وكلما أراد أن يفلت مع انتهاء الكابوس، أرمي عليه شراكي واستمر في تعذيبه حتى بعد يقظتي.

" متلازمة استوكهولم. "

قال الطبيب النفسي الذي زرته مضطراً، بعد تسريحي من العمل كمساعد مشرف في نادٍ للشباب، بسبب خمولي وسرحاني، فلم يبقَ أمامي سوى أن أخرج من تحفظي وخجلي، وأخضع للمعالجة النفسية كمرحلة لابد أن يمرّ بها مَنْ يحاول أن يجد مبرراً لعدم رغبته في العمل أو من يسعى للحصول على التقاعد.

" لالالا... "

قلتُ وأنا أتطلع بثقة في عيني الطبيب. ارتد إلى الخلف قليلاً وهو ينظر إلي بنظرات لا تخلو من إعجاب، إذ كان يظن بأن الذي أمامه رجل قادم من عالمٍ آخر، ولم يكن يتوقع بأن هذا القادم من بلاد متخلفة قد سمع بمتلازمة استوكهولم. أدركتُ ما يدور في ذهن الطبيب، فرحتُ

مكتبة الفكر الجديد

أؤكد معرفتي وعمق اطلاعي على نظريات التحليل النفسي، موضحاً للطبيب بأني لا أحنّ إلى ماضيَ المرعب، ولم أقع في حب مضطهديَّ. هزّ الطبيب العجوز رأسه وارتسمت على وجهه الأحمر وعينيه الزرقاوين ابتسامة حانية. الأمر الآخر الذي جعل الطبيب يقف حائراً أمام هذا المجنون العاقل جداً هو ردة فعلي الساخرة حينما سألني إنْ كنتُ أسمع أصواتاً غريبة تدعوني إلى القيام بفعلٍ ما. سألته وأنا أحاول إخفاء ابتسامة خبث :

" تدعوني إلى ماذا ؟ "

ارتبك الطبيب قليلاً، وقبل أن يجيب سألته :

" تدعوني إلى الانتحار مثلاً ؟ "

هزّ الطبيب رأسه بالايجاب وقد ارتسمت على وجهه علامات خجل، حاول أن يخفيها إلا أنه لم يستطع، خاصة بعد أن ارتفعت قهقهاتي، فتجمدتْ ابتسامته الخجولة، مركزاً نظراته على سطح مكتبه، بانتظار أن يبوح المريض بالسبب الذي دفعه إلى الضحك. تطلعتُ إليه بكبرياء، وقلت بصوت واطئ لا يخلو من نبرة أسى :

" أنا عاشق للحياة. "

توقفتُ عن عرض مرافعتي التي كان ينبغي أن أدلي بها في قاعة المحكمة، لكني رفضتُ على الرغم من إلحاح المحامي المكلف بالدفاع عني، وقد حاولَ أن يستند إلى مراجعاتي المتكررة للطبيب النفسي لإظهاري بمظهر المريض الذي لم يكن بوعيه أثناء ارتكابه للجريمة، كذلك على الظروف القاسية التي عشتها في بلد تحكمه الدكتاتوريات، والحرب التي اشتركت فيها، ولم ينسَ البيئة التي انحدرتُ منها وتأثير

مكتبة الفكر الجديد

الدين، ومفهوم الشرف في التقاليد السائدة في مجتمع يختلف تماماً عن المجتمع الدنماركي. كاد المحامي ينجح في سعيه إلى تخفيف الحكم إلا أن إصراري على الصمت، كان شاهداً ضدي.

لا أدري إنْ كنتُ قد تكلمتُ بصوتٍ عالٍ في السيارة، أم كنت أدلي بشهادتي صامتاً أمام محكمة الذات، وهل كنتُ خلال غيبوبتي أتكلم باللغة العربية أو بالدنماركية ؟. ما أثار حيرتي وخجلي هو أني رأيت الشرطيين يتطلعان إليّ بصمت وذهول، ويتبادلان النظرات الغريبة بينهما، كأنهما كانا يصغيان إلى ما تلته، وألاّ كيف لي أن أفسّر نظرات الشفقة التي كانا يرميانني بها، وكيف تغيّرت نظرة الشرطي السائق نحوي، وهو الذي ظلّ صامتاً ولم يوجّه أي كلامٍ لي إلا إذا كان يضمر شيئاً من السخرية والاستصغار. كدتُ أسأل الجالس جنبي عن الأمر، غير أن السائق سبقني، وبادر بسؤال لكسر حالة الصمت وهو يتطلع إليّ في المرآة الصغيرة :

" هيه، هير.. هل عدتَ إلى العراق بعد سقوط نظام صدام حسين؟"

" لا. "

" لماذا ؟ "

تطلعتُ إلى الشرطي بصمت ثم أشحت بوجهي إلى الجانب الأيسر، وحينما تيقنتُ بأني لا أقف الآن أمام حاكم أو محقق، وأن ما أقوله لشرطيّ لا يقدم أو يؤخر شيئاً، لذلك حاولتُ أن أضع عائقاً أمام فضوله في طرح المزيد من الأسئلة، فقلت دون أن أنظر إلى أيّ من الشرطيين :

مكتبة الفكر الجديد

" لأسباب شخصية. "

ولكي أؤكد على عدم رغبتي في الإجابة على أسئلتهما، التفتّ إلى الشرطي الجالس إلى يميني وسألته :

" اين نحن الآن ؟ "

" قبل وقت قصير اجتزنا مدينة أودنسا. "

قال، ثم أضاف :

" حينما كنتَ نائماً. "

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

مكتبة الفكر الجديد

كانت روزا تجلس أمامك، ساهمةً، تحاول أن تخفي قلقها وهي تتطلع من نافذة القطار إلى حقول الشعير التي امتدت على مساحات كبيرة بين مدينتي فايله وأودنسا، كبساط أصفر تنعكس عليه أشعة الشمس، بينما كنتَ تسترق النظر إليها بزهو أبٍ، لم يصدّق أن طفلته التي شهد لحظة ولادتها قد شارفتْ على العشرين من عمرها، بأنوثة طافحة بعنفوان فرسٍ بريّة جامحة لا يروّضها لجامٌ، ولا يحدّ مضمارَ سباقها أفقٌ.

عشرون عاماً انطوت كأنها عشرون يوماً، وها هي الوليدة التي حملتها بين ذراعيك، وجسدها مغطّى بالدمِ والمشيمة، تعود اليوم وتصحبها للإطمئنان عليها وهي تبدأ حياتها الدراسية في جامعة أودنسا. وعلى الرغم من أن المسافة لا تستغرق أكثر من ساعة بالقطار، إلا أن روزا أصرّت على الانتقال والإقامة في الحي الجامعي، ولم تأبه بدموع أمها ولا بتوسلاتك بها للبقاء في البيت والذهاب والعودة يومياً، ولم يكن أمامكما سوى الرضوخ لرغبتها في الاستقلال، بل الانسلاخ عن جلد التمساح الذي كانت تنوء به وانتظرت هذه اللحظة لكي تتحرر من هذا القماط الحديدي الذي كبّلتماها به، وكأنها تعلن ساعة الصفر في إنهاء مرحلة هي لا تعرف كم كلّفتك من حزن وآلام، لكن الذي زاد من غضبك وحنقك عليها هو ما أخبرتك به قبل أيام حول قرارها في تغيير اختيارها للمادة التي ستدرسها في الجامعة، فمنذ انتقالها لمرحلة الجمنازيوم اختارت دراسة التاريخ على الرغم من تفوقها بالمواد العلمية، وشجعتها أنت على ذلك بعد أن لاحظتَ اهتمامها وولعها غير

مكتبة الفكر الجديد

الطبيعي في مطالعة كتب التأريخ القديم ومتابعة برامج التلفزيون التي تتناول تأريخ الحضارات القديمة، حتى كانت تفاجئك وأمها بمعلومات كنتما تجهلانها حول تأريخ بلاد ما بين الرافدين والتأريخ الفرعوني، وراحت تسخر منكما حينما أدركتْ بأنكما لا تعرفان أين تقع (ميزوبوتامايا). لكن.. ومنذ قبولها في الجامعة، وفي الفرع الذي تعشقه غيّرت فكرتها، وحينما سألتها عن السبب ردت بثقة :

" لن أدرس تأريخ شعب لا يحترم تأريخه. "

" ماذا تقصدين ؟ "

سألتها باستغراب، فأجابت وهي تلوي عنقها وتنظر إلى يمينها :

" ألم ترَ كيف حطّمَ شعبكَ متحفه وعبث بمحتواه ؟ "

كنتَ تدرك ما تعنيه روزا، وإلى أية حادثة تشير، وحينما أردتَ أن توضّح لها حقيقة ما حدث بإلقاء اللوم على الجيش الأمريكي، قالت وهي تمط شفتيها بسخرية واضحة :

" ومن جاء بالجيش الأمريكي ؟ ومن الذي رحّب به ؟ "

باغتك كلامها فارتبكتَ، حينذئذ أجهزتْ عليك بنزق مراهقة :

" لن أحترمَ شعباً لا يعرف قيمة تأريخه. "

شريط من الذكريات مرّ أمامك وأنت تنظر إلى الطفلة الجالسة أمامك في رحلة التحول، لا تدري من الذي تغيّر، أنت ؟ هي ؟ أم العالم؟.

في مدينة أرومية الإيرانية، وبعد تحقيق طويل ومملّ، كنتَ خلاله حذراً في الإجابة، كأنك تجتاز الأرض الحرام المزروعة بحقول الألغام، لكي تصل إلى مواقع العدو، أسيراً بمحض إرادته، مقاتلاً لم يبق أمامه

مكتبة الفكر الجديد

طريق سوى الاستسلام إلى عدو، وجدَ هو الآخر نفسه رغم أنفه في حربٍ لا أحد منهما يعرف أسباب اندلاعها ومتى ستتوقف.

لم يتطلع المحقق إلى سهاد ولم يوجّه إليها أيّ سؤال، فقد كانت أسئلته كلها تدور عن انتمائك الحزبي والطائفي، وباختبارات ساذجة أثارت القرف في داخلك من متذاكٍ يفضحه غباؤه، وحينما استطعت الإجابة على كل أسئلته التي تتعلق بالدين وفروضه والمذهب الشيعي وعدد أئمته، راح يركزّ على السنة التي قضيتها في الحرب وعن الكتيبة التي خدمت فيها والأماكن التي تواجدت فيها. كنتَ صادقاً في كل ما قلته، لئلا تقع في تناقضات يكشفها المحقق برغم ما يبدو عليه من غباء ورعونة واضحة تظهر من خلال تصرفاته وحركاته الصبيانية التي يحاول من خلالها أن يعطي لنفسه أهمية تزيد من ارتباكك، إلا مسألة الانتماء الحزبي، فقد أخبرك أكثر من رفيق بأن عليك ألاّ تخبرهم بانتمائك إلى الحزب الشيوعي لأن ذلك سيسبب لك مشاكل كثيرة. فالانتماء إلى الحزب الشيوعي تهمةٌ قد تودي بك إلى سجونٍ لا يعلم مكانها إلا الله.

رفع المحقق رأسه إلى زاوية الغرفة البعيدة متحاشياً النظر إلى سهاد وسألك عمّا إذا كنت تحمل جوازاً عراقياً نافذ المفعول لكي تتمكنا من السفر خارج إيران، أو أنّ لكما أقارب إيرانيين يكفلون خروجكما للعيش في جمهورية الإسلام، وحينما أجبته بالنفي، هزّ رأسه، ماطاً شفتيه، وهو يهرش لحيته الكثة بيد وباليد الأخرى يطوي أوراق الملف. تطلع إليكما بنظرات لا تخلو من شماتةٍ أو حقد وهو يردد ببطء شديد وكلمات متقطعة في سياقها، ماطاً الحرف ما قبل الأخير من كل كلمة حتى انقطاع نَفَسه :

مكتبة الفكر الجديد

سألته بحزن واضح :

" إلى متى ؟ "

رفعَ كتفيه حتى اختفت عنقه في جسده، ناشراً كفيه مبسوطتين، وهو يجيب بفكّين رخوين يكادان يسقطان :

" حتى سقوط نظام صدام الكافر... لتعودا إلى بلدكما . "

عدتما من التحقيق إلى غرفتكما الطينية الباردة ولم تخرجا منها إلا في اليوم التالي، كأنكما تحاربان قبح العالم بممارسة الجنس.

سنة مرّت على وجودكما في (أوردكاه أورمية) مرّت عليكما وجوه كثيرة لعوائل عراقية، أقامت في المكان ثم سافرت إلى السويد أو ألمانيا، ومن بينها من لم يطق صبراً على البقاء فعاد إلى العراق. حاولتَ إقناع سهاد بالهروب إلى تركيا كما فعل البعض ومنها استطاع السفر إلى اليونان أو إيطاليا، إلا أن سهاد كانت ترفض فكرة المجازفة غير المضمونة، وحينما كنتَ تضيق ذرعاً بهذا السجن وبمعاملة الحراس الإيرانيين الحمقاء، ويصل بك الأمر حد الصراخ الهيستيري، كانت سهاد تحاول أن تخفف عنكَ، مذكّرة إياك بقصة حبكما وإصراركما على تخطي العقبات التي كانت تقف في طريقكما، لتعيد أمامك شريط الفلم الرومانسي الذي كنت تراه بعكس ما كانت سهاد تظن.

" تكفيني سعادة أن أكون معك حتى لو في غرفة سجن. "

فتهزّ رأسك لتوحي لها بقناعتك بما تقول، وحينما تقرأ سهاد الهواجس التي تدور في رأسك من خلال صمتك المفاجئ وغمامة الحزن

مكتبة الفكر الجديد

التي تغطي وجهك، تقترب منك ضاغطة صدرها على كتفك وهي تحرك كفها على صدرك مداعبة شعره بأنامل مكهربة، حينذاك تلتف إليها طاوياً جسدها بسرعة ليستقر تحتك. تولجه فيها وأنت تتطلع في عينيها بنظرات هرّ أدماه العراك مع الهررة للحصول على مبتغاه.

" أشتهيك.. أمتلكك.. أستعبدك.. أنت عاهرتي.... "

كنتَ تردد وتطلب من سهاد أن تعيد كلماتك لتستمتع بإذلالها. رفضت سهاد في البدء وحاولتْ أن تنسحب من تحتك فضغطتَ على جسدها بكل ثقلك، وحينما رأتْ إصرارك، استسلمتْ. حاولتْ أن تجاريك في هياجك المجنون، متفهمة بذكاء انثى الأمر الذي يدفعك إلى هذا الشعور، فراحت في البدء ترددها على خجل، حتى اعتادتها، بل صارت تعازيم لفتح مغاليق جسدك على بركان من الشهوة المجنونة تجعلها تحلّق في فضاء بعيد عن وحشة المكان، ثم صارت ترددها دون أن تطلب منها، بنشوة تعادل نشوة الحصول على الأورجازم :

" أشتهيك.. امتلكني.. سيدي.. أنا عبدتك.. أنا عاهرتك... "

وصلَ أحد الرفاق الذين التقيتما به حينما كنتما في كردستان بصحبة زوجته، فكان وصولهما مثل سحابة أمطرت فرحاً على صحراء كآبتكما. استقبلتماهما بفرح جنوني كأنكما لم ترَيا كائنات بشرية من قبل. ساعدتماهما في إعداد غرفتهما وتنظيفها من شبكات العنكبوت وفضلات الفئران، وفرش أرضيتها بقطع الكارتون. قامت سهاد بإعداد وجبة كبيرة من الرز والباقلاء. تحدثتَ مع الرفيق أبي سلام باختصار عن ظروف المعيشة في المعسكر وأخبرتَه عن المحاذير التي خبرتها في التعامل مع حرس المعسكر، وعمّا ينبغي عليه الإجابة أثناء التحقيق. تلك الليلة لم ينم أيّ منكم، وكان الحديث يدور عن الوضع في العراق والحرب

مكتبة الفكر الجديد

التي انعكست مجرياتها بعد أن انسحب الجيش العراقي إلى الحدود وأصبح الجيش الإيراني هو الذي يهجم، ونية القيادة الإيرانية الواضحة في احتلال البصرة وأجزاء كثيرة من كردستان. تحدث أبو سلام عن تجربته مع الأنصار والتي بدأت منذ بداية تجربة الحزب الشيوعي في الكفاح المسلح وبناء القواعد الأولى، وعن خيبة أمله بالتجربة التي شارك فيها منذ اليوم الأول لانطلاقها، تاركاً دراسته للنقد المسرحي في جامعة صوفيا، وملتحقاً بعنفوان وإيثار بفصائل الأنصار في كردستان، مكرساً طموحه وناذراً حياته لخوض المعركة ضد النظام الفاشي.

كان أبو سلام يتحدث وعيناه مغرورقتان بالدمع، وكأنه يبرئ نفسه من تهمة الجبن أو الأنانية التي كانت تلصق عادةً بمن ينسحب من ساحة القتال. راح يتحدث عن يأسه من إصلاح أخطاء تراكمت بسبب بيروقراطية القيادة ونهريها من نقد مسيرتها ومعاداتها لكل صوت شاب يسعى إلى إعادة مسيرة الحزب إلى المسار الصحيح، حتى أصبحت المشاركة في التجربة تواطؤاً ومحضَ عبث لا نتيجة منه سوى إطالة قائمة الشهداء، ولم يعد التفكير في الإصلاح مجدياً. تحدثَ عن الخروقات الحزبية والأخلاقية الكثيرة التي كان يرتكبها الرفاق، وعن قيادة الحزب التي تقيم تحالفات مشبوهة مع أعداء الحزب الطبقيين، والأخطاء التي سببت في استشهاد عدد من الرفاق، كما حدث قبل شهرين في الجريمة التي ارتكبتها عصابة جلال الطالباني في بشتاشان، فراح ضحيتها أكثر من ستين رفيقاً. لم يكتفِ بهذا بل راح ينتقد سياسة الإتحاد السوفييتي والدول الإشتراكية المتخاذلة والمتواطئة مع النظام البعثي، مرجّحةً مصالحها الإقتصادية المعتمدة على بيع السلاح للنظام الذي يذبح رفاقها على المبادئ. لم تسلم حتى النظرية الماركسية من انتقاد الرفيق الذي لم يمر عليه سوى شهرين على إتخاذ القرار بترك

مكتبة الفكر الجديد

ساحة النضال. كنتَ تهزّ رأسك متفقاً مع ما قاله أبو سلام، معلقاً بين فترة وأخرى بعبارات توحي بأنك كنت سبّاقاً في إدراك هذا الأمر، حتى ولو كانت الفترة التي قضيتها في الجبال لا تتجاوز الأسبوعين.

عاد الرفيق أبو سلام وزوجته من التحقيق وهو يسخر من الإيرانيين وغبائهم، ومن الزمن الذي أوصله إلى أن يقف أمام معتوه ليقرأ كتلميذ مهذب سورة الفاتحة ليثبت للمحقق أنه مؤمن برسالة النبي العربي، ثم انفجر ضاحكاً بصوت عالٍ وهو يتطلع إلى زوجته التي غطّت وجهها بكفيها وراحت تضحك. سألتُ سهاد عن سبب ضحكهما، فأجاب أبو سلام وهو يحاول أن يتوقف عن الضحك ويمسح دموعه :

" حينما طلب المحقق من نرجس أن تعدّ أسماء الأئمة الإثني عشر.. جعلتهم نرجس ثلاثة عشر إماماً.. "

قال أبو سلام واختنق بالسعال، بينما كانت نرجس تهزّ كتفيها وتغطي وجهها بكفيها.

" كيف ؟ "

سألتَ، فأجاب أبو سلام :

" أضافت الإمام الخميني إلى قائمة الأئمة المعصومين. "

كان أبو سلام يعرف أموراً كثيرة عن إيران، فهذه ليست المرة الوحيدة التي يدخلها، إذ سبق وأن نُقل إلى طهران ليرقد في إحدى مستشفياتها بعد أن أصابته رصاصة في كتفه في إحدى المعارك ضد الجيش العراقي، ومكث هناك أكثر من شهرين، لذلك استغربَ من وجودكما هنا دون أن تسعيا إلى الخروج من " هذا البلد السجن الذي يحاصر حتى الهواء "، وحينما سألته عن إمكانية الخروج لمن لا يملك

مكتبة الفكر الجديد

جواز سفرٍ ولا يريد مجازفةً غير مضمونة النتائج في اجتياز الحدود نحو باكستان أو أفغانستان، أجابك بثقة العارف :

" يمكنك شراء جواز سفر. "

" كيف ؟ "

سألتَ بفضول، فردّ أبو سلام وهو يضحك :

" في طهران يوجد زقاق اسمه كوجه مروي أو كوجه عرب.. هناك يتواجد عراقيون كثر.. ومنهم من يعمل بالتهريب والتزوير وبعلم المسؤولين الإيرانيين.. هناك تستطيع شراء أي جواز تريد ..... حتى الجواز الإسرائيلي."

صمتَ قليلاً ثم أضاف بثقة العارف بأدق التفاصيل :

" وبإمكانك السفر إلى أي مكان في العالم بشكل مضمون.. وبالاتفاق مع شرطة المطار. "

تلك الليلة أخرجت سهاد من صرّة ملابسها لباساً داخلياً، فتحته وأدلقت على الأرض كمية من الذهب تملأ كفين. تطلعتَ إليك بنظرةٍ مخاتلة ثم نزعت عن رقبتها السلسال الذهبي والدولفين ورمته على الأرض وهي تردد :

" لنخرج أولاً من نقرة السلمان.. وبعد ذلك تُهديني بحراً.. وليس دولفينا. "

وافق أغا قاسمي على منحكم إجازة لمدة عشرة أيام للسفر إلى طهران، بعد مماطلة لا يعرف هو نفسه سبباً لها. حاول أن يستعرض أمامكم سطوته والتلذذ بحالة المسكنة التي أنتم فيها، بإطالة فترات

مكتبة الفكر الجديد

صمته كأنه مقبل على اتخاذ قرارٍ يخص أمن ومصلحة الجمهورية الإسلامية، وهو يتطلع إلى المرأتين الواقفتين أمامه بخشوع. هزّ رأسه موافقاً، لكنه عاد ورفض متحججاً بطول المدة. إلا أن أبا سلام أفحمه بحجة لا يستطيع دحضها حينما أخبره بأن سبب الإجازة هو لزيارة مدينتي قم ومشهد، حينها وضع أغا قاسمي يده على رأسه وراح يهز جذعه كأنه في بُحرانٍ وغيبوبة ذكر، مردداً بطريقة مضحكة :

" سلام عليك يا معصومة.. سلام عليك يا حضرة إمام رضا . "

راح أبو سلام يقلّد حركته، بينما أشحت أنتَ بوجهك لكيلا تفتضح ضحكتك التي كابدتَ من أجل إخفائها .

استلمتم أوراق (عدم التعرض) بعد أن قام أغا قاسمي بتوقيعها . ولأنكم قررتم السفر ليلاً، فقد دعاكم أبو سلام لتناول وجبة الغداء في غرفته . في باب الغرفة وبينما كان أبو سلام يضع المفتاح في القفل، رمت نرجس إيشابها . إلتفتت إلى الخلف ثم رفعت كفّها باتجاه غرفة إدارة المجمّع، فاردةً إصبعها الوسطى بإشارة ذات دلالة معروفة، ونادت بصوت مسموع :

" اغاااااااااااي قاسمييييييييييييييييييي ... كس اختك. "

سادتْ لحظات من الصمت وأنت تنظر إلى سهاد بذهول وقد غطت وجهها بكفيها، ثم انفجرتم جميعا بالضحك.

وصلتم إلى طهران عند الساعة العاشرة صباحا بعد رحلة مملة استغرقت أكثر من عشر ساعات، حدثت خلالها مشادّة. لم تعرفوا سببها، بين أبي سلام وأحد المسافرين الإيرانيين، كادت تتطور إلى عراك بالأيدي وتهديد السائق لكم بالنزول من الحافلة، لولا تدخل

مكتبة الفكر الجديد

بعض العقلاء ومن بينهم رجل دين بعمامة بيضاء، كان يجيد اللغة العربية، والذي وضّح لكم بعد أن هدأت الضجة وحال البعض بين أبي سلام والرجل الذي هجم عليه معربداً. أن سبب اعتراض بعض الراكبين على وجودكم هو سقوط الإيشاب عن رأس نرجس ووضعها رأسها على صدر زوجها بطريقة تخلو من الحشمة.

نزلتم من الحافلة التي توقفت في ميدان آزادي. أشار أبو سلام إلى تكسي وطلب منه أن ينقلكم إلى خيابان ناصر خسرو. هناك استأجرتم غرفتين في فندق شعبي.

بعد يومين استطاع أبو سلام من خلال بعض أصدقائه أن يستأجر غرفتين في بيت قديم في منطقة مولوي التي تقع جنوبي طهران. انشغلت سهاد ونرجس بترتيب الغرفتين وشراء الحاجات الضرورية للطبخ والاستحمام، وهذا ما منحك حرية التحرك بصحبة أبي سلام لتنفيذ ما عزمتما عليه، فكنتما تخرجان إلى كوجه مروي صباحاً وتعودان ظهراً، وبعد استراحة وقيلولة كنتما تخرجان بصحبة زوجتيكما للتعرف على معالم طهران المختلفة حد التناقض الغريب، بين الجنوب الفقير والمتخلف بناسه المتعبين واحياء سكنه الضيقة بأزقتها المتداخلة مع بعضها مثل متاهة لا يعرف مداخلها ومخارجها إلا من طالت إقامته فيها، وبيوتها المتراكمة على بعضها كأقفاص دجاج، حتى شمالها الذي كأنه ينتمي إلى بلد آخر لا صلة له بالبلد الجنوبي حيث المتنزهات الكبيرة والشوارع العريضة بأرصفتها النظيفة التي تنساب إلى جانبها ساقية تنحدر من الشمال بماء نظيف، تُرى من خلاله صخور صغيرة صُفت بشكل منتظم. نساء يتحايلن على القوانين الإسلامية إذ يرتدين بناطيل الجينز والملابس الضيقة التي تكشف عن أجساد رشيقة

مكتبة الفكر الجديد

بتضاريس مثيرة، مطلقات خصلات من شعورهن شقراً كالذهب أو سوداً كالأبنوس تنساب على أعناق بيض طويلة، مفتعلات السهو عن ربط أغطية الرؤوس أو انفتاح الأزرار العليا من قمصانهن، كاشفات عن مساحة بين العنق والنهدين تكفي للمخيلة أن ترسم ما يختفي من تفاصيل أخرى. مقاهٍ مختلطة روادها من الشباب والشابات، يشيعون شيئاً من المرح في المكان المحاط بأسوار من الكآبة والخوف الذي ترسمه كوميتات الباسداران ومفارز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يدخنون ويشربون (ماء الشعير) أو البيرة الإسلامية، كأنهم يستعيدون ذكرى ماضٍ جميل، لم يتبقَ منه إلا بقايا نكهة كطعم الـ (آب جُو) الخالية من الكحول.

(كوجه مروي)... زقاق طويل يقع في قلب العاصمة طهران، يتفرع من شارع (ناصر خسرو)، الشارع الذي يربط ما بين ساحة الـ (توب خانه) والبازار الكبير، والذي يضجّ بالحركة وأصوات أبواق السيارات ونداءات الباعة. السيارات تسير بحركة غير منتظمة حيث لا وجود لإشارات مرور أو شرطي ينظّم السير، ولا توجد أماكن لعبور السابلة. حينما أبديتَ استغرابك من هذه الفوضى ردّ عليك أبو سلام بطريقته الساخرة :

" لا تستغربْ من أي شيء في إيران.. فهنا لا توجد قوانين.. سوى قانون واحد يطبقونه بكل إخلاص. "

صمت قليلاً ثم انفجر بضحكة وهو يردد :

" إنه قانون ... هوش الله بارض الله. "

على الرصيف الضيق تصطف بسطات باعة الخردوات ومزوري الأختام، ويفترشها بشر لا تستطيع التمييز بين المنتظرين منهم والشحاذين. فكل الوجوه يلوح على ملامحها الإنهاك والغضب، رافعين

مكتبة الفكر الجديد

رؤوسهم كأنهم بانتظار فَرَجٍ طال غيابه، يهبط عليهم من السماء في أية لحظة. على جهة اليسار من شارع ناصر خسرو تقع (كوجه مروي)، زقاق ضيّق تتوسطه ساقية لمجرى الأوساخ ومياه المطر، وعلى جانبيه اصطفت محلات لا يمكن تحديد بضاعتها حيث تختلط الخصروات بالملابس النسائية وقلاّمات الأظافر بعلب الكبريت، ومطاعم تعرض مأكولاتها أمام الجائعين الذين يضطرهم الجوع على التهام ما يرونه أمامهم دون التفكير في صلاحيته، من الكباب والشاورما ورؤوس الأغنام التي تطفو على طبقة من الزيت في قدور كبيرة.

اتخذ العراقيون هذا الزقاق مكاناً للقاء وبيع البضائع المهربة وتزوير الوثائق الرسمية وتصريف العملات الأجنبية بكافة أنواعها من الدولار الأمريكي والين الياباني حتى الشيكل الإسرائيلي. مطاعم تبيع الأكل العراقي حيث تشمّ من بعيد رائحة الباميا وبهارات (الشيخ محشي). مقاهٍ مدلهمةٌ بسحب الدخان والذباب المتراكم على المناضد الخشبية والكراسي المتضعضعة، يراهن فيها المقامرون بطرق غريبة لم تعرفها من قبل. تتفرع من كوجه مروي شبكة من الأزقة الملتوية كأفاعٍ والتي تضيق وتضيق حتى تنتهي بأزقة لا تسع لمرور شخص واحد إلا إذا سار بشكل جانبي. في هذه الأزقة بيوت يسكنها العراقيون والشحاذون، ويباع فيها العرق المغشوش وأجساد العاهرات والغلمان. كوجه مروي تخلو من شبكة تصريف المجاري لكنها لا تخلو من شبكات تجسس للنظام العراقي وللنظام السوري وحتى للموساد الإسرائيلي كما كان يشاع، ورجال شرطة سرية يعملون لصالح جهات مختلفة كوزارة الداخلية الإيرانية ومنظمات الحرس الإسلامي (الباسداران) وكذلك المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق والأحزاب العراقية المختلفة والمتصارعة في ما بينها. تستطيع الحصول على جواز سفر أو فيزا لأي

مكتبة الفكر الجديد

بلد ترغب في السفر إليه وبأسعار مختلفة، وتستطيع من خلال الوكلاء السريين أن تقابل أي مسؤول حكومي رفيع المستوى عبر سلسلة مراتب تتصاعد ويتصاعد معها مبلغ الرشوة الذي يجب دفعه...

وهكذا، فأن كوجه مروي أو كما يسميها الإيرانيون كوجه عرب تشكل عالماً مستقلاً بذاته، عالماً تحوم حوله الشُبهات.

دخل أبو سلام المقهى الذي كنتَ تنتظره فيه وسط غيوم من دخان التبغ الرديء وعفونة أجساد خانقة، كأنها جثث متفسخة. وقف عند الباب وأشار إليك برأسه، بحركة أعادتك إلى فترة النضال السياسي خلال النصف الأول من السبعينات. التحقتَ به بعد بضع خطوات، وأنت متلهف لسماع ما يحمل من أخبار. همس في أذنك :

" الآن ستلتقي بعزيز الكاظماوي. "

وقبل أن تسأله عمن يكون، قال :

" عزيز الكاظماوي رفيق قديم.. ويقيم في طهران منذ عام **1971**

" رفيق ؟! "

سألتَ باستغراب، فراح أبو سلام يؤكد :

" نعم.. كان رفيقاً شيوعياً.. لكنه ترك الحزب منذ بضع سنوات.. وهو الآن مسؤول حركة عراق المستقبل في إيران. "

" وما علاقتنا به ؟ "

سألتَ، فردّ وهو يتطلع إليك بنظرة توحي بضجره من إلحاحك بالسؤال :

مكتبة الفكر الجديد

" هو الشخص الذي سنتعامل معه بخصوص شراء جواز السفر. "

" سياسي ويعمل في التزوير!! "

قلتَ ساخراً، وأضفتَ :

" وفوق ذلك أنه مسؤول عن حركة عراق المستقبل! "

تجاهل أبو سلام تعليقك، حاثاً خطاه ليسبقك ببضع خطوات منتقلاً إلى الجانب الثاني من مجرى المياه الوسخة الذي يتوسط الزقاق.

في منعطف أحد الأزقة المتفرعة من كوجه مروي، وعند بائع الشاورما، كان يقف رجل تجاوز الخمسين من العمر بقليل، رجل قصير القامة، بدين جداً، حتى يبدو جسده كأنه مكعب الشكل، لُصق رأسه على صدره فلم تظهر رقبته. يرتدي معطفاً وبريراً طويلاً وبنطلوناً فضفاضاً معلقاً بشيّالتين تضغطان على كرشٍ يكاد يقطّع أزرار القميص. مدّ يده لأبي سلام مصافحاً، ثم التفت إليك وراح يرمقكَ بنظراتٍ غريبة كأنه يشحذ فراسته لمعرفة مدى جدية هذا الزبون الجديد في التعامل معه. أكمل التهامَ لفّة الشاورما، وقال بطريقة تاجر لا يريد تضييع وقته الثمين، فكان صوته أنثوياً ناعماً، لا يلائم ضخامة جسده الذي سدّ حيز الزقاق :

" خمسة آلاف دولار للجواز.. سبعة آلاف دولار مع الزوجة.. عشرة آلاف مع الفيزا.. إثنا عشر مضمون. "

قال بحزمٍ كأنه يريد حسم الأمر مقدماً بطريقة لا تقبل المساومة.

" ماذا تعني بمضمون ؟ "

سألتَ، فوضع يده على كتفك وهو يتطلع في عينيك، ثم قال :

مكتبة الفكر الجديد

" مضمون يعني... مضمون. "

" لم افهم. "

اجبتَ بطريقة لا تخلو من السخرية وانت تركّز نظراتك في عينيه. أزاح كفّه عن كتفك، وبعد لحظات من الصمت قال هامساً :

" المضمون يا رفيقي... يعني أن نقوم نحن بحجز بطاقات السفر.. ويقوم أحد وكلائنا بمصاحبتك حتى باب الطائرة. "

توقف قليلاً، ثم قال بطريقة الواثق من كلامه :

" أو حتى إلى مقعدك... "

ثم ارتفعت قهقهته وهو يحاول أن يمطّ عنقه التي لا تُرى، مضيفاً بمرح:

" وإنْ شئتَ سيقوم بربط حزام الأمان لك.. وإنْ شئت أكثر يا مولاي.. فأنّ وكيلنا سيوصي المضيفة الروسية الشقراء بأنّ تقدم لك خدمة خاصة. "

هززت رأسك بإعجاب، وقبل أن تعلن موافقتك، قال أبو سلام :

" لا.. لا.. يا رفيقي.. المبلغ غال جداً.. ليكن مضموناً ولكن بعشرة آلاف دولار. "

" لالالا.. أسعارنا ثابتة وغير قابلة للمساومة. "

قالَ عزيز الكاظماوي، وخطا خطوتين بإشارة لإنهاء الحديث. أوقفه أبو سلام متشبثاً بذراعه، وقال بمرح :

" رفيقي عزيز.. ماذا تظن بنا ؟.. رفيقنا سامي هذا لاجئ وليس تاجراً.. إنه بروليتاري.. من أين له تدبير هذا المبلغ؟ "

مكتبة الفكر الجديد

وقبل أن يرد الكاظماوي، قاطعه أبو سلام :

" نريده مضموناً وبعشرة آلاف دولار. "

لم يترك له فرصة للإعتراض، فأضاف :

" لا تنسَ عيني عزيز.. الرفيق سامي ليس وحده.. زوجته معه.. وليس من المعقول أن تقبل غيرتك أن تتبهذل رفيقة مناضلة من قبل هؤلاء الوحوش. "

أغمض عزيز الكاظماوي عينيه وهو يحكّ مؤخرة رأسه، ثم هزّ رأسه موافقاً على العرض. لم يترك الأمر يمرّ دون شيء من التبجح، فقال :

" لخاطر الحزب.. سأتنازل عن حصتي في الصفقة. "

ثم أضاف وهو يزفر حسرة :

" قضينا عمرنا بالنضال.. هل يتوقف الأمر على ألفي دولار. "

مدّ يده نحو أبي سلام مصافحاً، ثم صافحكَ، متمنياً لك سفرةً سعيدة، فسألته :

" ومتى يتم تسليم المبلغ. "

" نصفه مقدماً.. والنصف الثاني عند باب الطائرة. "

تركهما وسار، ودون أن يلتفت إليهما، قال :

" لا تنسَ.. صورة حديثة لك وأخرى لزوجتك. "

كانت ساعة المطار الكبيرة تشير إلى السابعة صباحاً، وقد وصلتم إلى المطار قبل ثلاث ساعات من موعد إقلاع الطائرة إلى موسكو.

مكتبة الفكر الجديد

الخوف الذي حاولتَ إخفاءه عن سهاد وعن أبي س
جاءا لتوديعكما، كان يعيق حركتك، كأنكَ تتعثر
تخرج من فمك جافةً، متقطعة، بينما صوت قرقر
فترة وأخرى. خوف، كنت تتصور أنك لن تمر بد
مفرزة التفتيش الأخيرة قبل وصولك إلى مدينة
المجهول بإرادتك، لكن.. ها هو يعود إليك أشد ض
تدرك أن فشل العملية لا يؤدي بك إلى حبل مشنقة أ
من المؤكد أنه سيؤدي بك إلى اليأس، خاصة بعد أ
حوزتكما من مدخرات الذهب التي لم يخطر في بالا
أن سهاد قد حملتها معها، حتى حينما سألتها عن
تجازف بحمل هذه الثروة ليست القليلة، وأنتم
كمقاتلين في صفوف الأنصار، لا تعرفان أين يصا
تعرفان إنْ كنتما ستعودان سالمين، أم ستسجلار
الحزب الطويلة رقمين، قالت :

" ولمن سوف أتركها ؟ "

وقبل أن تستفسر عن معنى كلامها، أوضحت :

" أبي رجل زاهد لا تهمّه الثروة.. وأمي جشعة
لها ثروتي. "

.... وعلى الرغم من التطمينات التي كان ي
يصوغ عباراتها بثقة، مؤكداً أنه يتكفل بمصداقية
ويعرف بيقين علاقاته المتشعبة مع المسؤولين الإير
تدرك أن لا ثقة بمزوّر، خاصة إذا كان سياسياً يلعب
الأحزاب بفهلوة أساسها الإرتزاق واللاشرف.

مكتبة
الفكر
الجديد

الوقتُ يمرّ بطيئاً جداً وانت متردد بين رغبتك في تسريع الوقت أو إبطائه، لكن الذي تعرفه وواثق منه بأنك الآن في طريق اللاعودة، والحصول على نتيجة الإمتحان مهما كانت أرحم بكثير من قلق الانتظار، فليأتِ الكاظماوي بالجواز وبطاقات السفر أولاً، ثم لكل حادث حديث.

انفتح حيز تدقيق الجوازات والحقائب للمسافرين على الخطوط الجوية السوفيتية إلى موسكو. وأنتم بانتظار الإشارة التي لا تعرفون من اية جهة ستطلّ عليكم. أشار إليكم أبو سلام أن تبتعدوا قليلاً عن بوابة المطار الخارجية كيلا تثيروا فضول رجال شرطة المطار والعاملين الذين يستعرضون خدماتهم في حمل الحقائب إلى داخل المطار أو إلى سيارات الإجرة التي اصطفت أمام بوابات المطار.

بلغ القلق أشدّه وأصبح اليأس بحكم اليقين، حينما أشارت ساعة المطار إلى التاسعة والنصف، ولم يبقَ لموعد إقلاع الطائرة سوى نصف ساعة فقط. انتقل القلق إلى أبي سلام الذي راح يتحرك في كل الجهات وهو يضغط بأسنانه على عقب السيجارة، متوعداً عزيز الكاظماوي بأن يبقر كرشه إنْ نكث بوعده، ناعتاً إياه بعبارات تتجاهل وجود امرأتين، بينما جلستَ أنت على حقيبتك ورأسك بين كفيك، تتحاشى النظر إلى سهاد التي تحول وجهها إلى ورقة صفراء على الرغم من المكياج الخفيف الذي وضعته قبل مغادرتكما البيت.

" يلاّ.. يلاّ.. "

صوت صبي في بداية مراهقته، لم تره من قبل خرج من قاعة المطار. التفت إليه أبو سلام وصرخ به :

" اين أنتَ يا ... ؟ "

مكتبة الفكر الجديد

لم يجبه الصبي، وإنما أسرع بحمل الحقيبة ودخل إلى قاعة المغادرة، وهو يردد :

" كل شيء حسب الخطّة. "

بعد دقائق عاد، بصحبة شرطي إيراني في بداية العشرينات من العمر. سلمك الصبي جواز السفر والبطاقتين. أشرت إليه بأن المبلغ عند أبي سلام الذي هزّ رأسه مؤكداً. تناول الشرطي الجواز وبطاقتي السفر وسار أمامكما بمشي أقرب إلى الهرولة. اجتزتم ممرات وقاعات وطوابير من المسافرين، حتى وقفتم عند مدخل يقف شرطيان على جانبيه. تحدث الشرطي مع الرجلين الواقفين بكلمات لم تفهما منها شيئاً، ثم التفت إليكما. سلّمك الجواز والبطاقتين، مادّاً ذراعه باتجاه الباب وهو يحرك رأسه بحركات خفيفة، مردداً :

" بفرمو.. أغا بفرمو ... "

مددت يدك في جيبك وأخرجت ما تبقى لديك من عملة إيرانية وحشرتها في كف الشرطي. تناولها بسرعة، وهو يردد :

" بسلامت.. بسلامت.. "

كان ثلاثة رجال وامرأتان يقفون في الطابور عند الباب المفضي إلى الخارج. وقفتَ وراءهم محاولاً كتم لهاثك، حتى حان دورك. تناول موظف المطار الجواز والبطاقتين. راح ينقل نظره بين صورتك في الجواز ووجهك، بينما كانت أنظارك تتركز على أصابعه التي تمسك بالبطاقة، منتظراً لحظة شروعها بقطع بطاقة الرحلة، التي جاءت بحركة بطيئة.. بطيئة جداً كأنها تفتح بوابة الزمن.

خطوتَ سريعاً بعد أن استلمت الجواز والبطاقتين وأنت تمسك ذراع سهاد التي انقادت إليك باستسلامٍ دون أن ترفع رأسها. هبّت

مكتبة الفكر الجديد

نسائم باردة فشعرتَ بقشعريرة في جسدك المتعرق وتشنج فكيك المرتعشتين. نادى عليكما أكثر من مسافر لكي تسرعا في الصعود إلى العربة الزرقاء.

كلّ شيء جائز في هذا البلد، هذا ما تعلمته من خلال إقامتكما في جمهورية إيران الإسلامية، التي كانت سنة وأربعة أشهر وسبعة عشر يوماً. كل شيء جائز.. قد تتعطل العربة التي تنقلكما من بوابة المطار إلى الطائرة المتهيئة للإقلاع، أو تعود لسبب لا تعرفه. قد يعيدكما الشرطي الواقف أسفل السلم المتحرك بعد أن يشكّ بكما، أو لوشاية من قبل أحد أفراد العصابة. قد يمنعكما المضيّف الواقف بين غرفة القيادة وجوف الطائرة حينما لا يرى في عيونكما بهجة السفر. ربما لم تجدا في الطائرة مكانين شاغرين ليكتشفوا أن بطاقتيكما مزورتان وأنكما لم تسجلا ضمن المسافرين. قد تتأخر الطائرة عن الإقلاع، حتى بعد أن أغلق بابها وارتفع هدير المحرك، وبدأت المضيفات الروسيات يقدمن استعراضاً توضيحياً للتدابير التي يجب إتخاذها في حالات الطوارئ. قد يُنادى عليكما قبل إقلاع الطائرة بثوان، قد تخفف الطائرة فجأة من سرعتها على مدرج الإقلاع وتعود بسبب عطلٍ فني، وقد ....

تطلعتَ من نافذة الطائرة، كان ضباب كثيف أو دخان أبيض يتصاعد من قلب الأرض، كأن طهران تحترق. كانت وجوه المسافرين تتغير ملامحها بوضوح ملموس كأنها تحاول التخلص من عبوسٍ تجمد فيها، وتتحرر شيئاً فشيئاً من جاذبية الحزن. انطلقت صرخات ابتهاج ما أن انطفأت علامة شد الحزام، وانطلق صوت أنثوي يرحب بالمسافرين.

وقفت مسافرةٌ روسية في الممر الفاصل بين المقاعد وأزاحت الإيشاب عن رأسها بحركة احتفائية. حرّكت رأسها فتطاير شعرها

مكتبة الفكر الجديد

الأشقر الطويل في فضاء الطائرة. جارتها نسوة كثيرات. تطلعتَ إلى سهاد الجالسة عند النافذة، فارتسمت على شفتيها ابتسامة راحت تتسع وهي تغمض عينيها بنشوة. أزاحت حجابها ببطء، ورمت رأسها على صدرك وهي تزفر حسرة مكتومة، انتظرتْ طويلاً كي تصل إلى لحظة انعتاقها.

وصلت المضيفة وهي تدفع عربة المشروبات، وحينما سألتك عمّا ترغب في شربه، قلت :

" فودكا. "

ابتسمت المضيّفة، ثم أخبرتك بلغة إنكليزية ضعيفة بأن القانون يفرض الامتناع عن تقديم الكحول قبل الخروج من المجال الجوي الإيراني. هززت رأسك متفهماً الأمر ومعتذراً عن جهلك به. تطلعَ إليك رجل مسنّ، كان يجلس في المقعد الأمامي باستهجان، فأشحت بوجهك عنه، مستعيداً لعبة الاحتمالات السيئة :

" قد تعاد الطائرة إلى مطار طهران قبل دخولها الأجواء السوفييتية، بسبب مخالفتها لقوانين الجمهورية الإسلامية. وقد... "

تسارعت نبضات قلبك وأنت تطلّ من نافذة الطائرة التي بدأت بالهبوط مخترقةً بعض الغيمات المتفرقة، حتى لاحت موسكو واضحة تحتك. كانت عيناك تبحثان عن نهر الدون الذي ارتبط في ذهنك بالهدوء. ضغطتَ على كفّ سهاد فلمست بللاً في راحتها. رفعتها وطبعت قبلة عليها، فومضت دمعتان في عينيْ سهاد، تشاغلتَ عن التركيز فيهما بالنظر إلى المدينة الواسعة، ضاغطاً بجسدك جسدَ سهاد الذي يفصل بينك وبين النافذة، فشعرتَ بحركة صدرها اللاهث.

مكتبة الفكر الجديد

ضغطتَ بكفك على كفها برفق، ممرراً إبهامك على ظاهر كفها وبين أصابعها، فأطبقت جبهتها على صفحة وجهك.

لم يكن الخوف من الهبوط هو السبب الذي زاد من دقّات قلبك، بل هو بقايا حبّ لم يخمد، وشوق عاشق للقاء حبيبة كنت تتمنى لقاءها في غير هذه الظروف، تذهب إليها متمهلاً، لا عابرَ أجواء، خائفاً من غموض نهاية الرحلة، فتضمّك عاشقةً وتفتح لك أبواب تضاريسها، لتركض في غاباتها الجميلة تحت أمطارها وثلجها الكثيف، تعبر جسورها وتطلّ على النهر الذي سيذكرك بدجلة، تزور جامعاتها ومكتباتها ومتاحفها، تدرس الفلسفة أو الاقتصاد السياسي في جامعة لومامبا، تزور الكرملن لترى جسد النائم بعينين مفتوحتين بسعة أحلام الفقراء، تقف عند تمثال بوشكين، تقرأ شعراً لمايكوفسكي في الساحة الحمراء، تحضر حفلة للفرقة السمفونية في مسرح البولشوي، تشاهد أوبرا بحيرة البجع.... وتحلم، تحلم بعراقٍ يسود فيه السلام وحكومة العمال والفلاحين.

في قاعة الترانسيت، بعد أن أكملتما التسجيل والتدقيق للمرحلة الثانية من سفرتكما، من موسكو إلى برلين الشرقية، كانت تدفعك رغبة قوية في الجلوس عند نافذة وتتطلع إلى فضاء مدينة الحلم. أحطتَ كتف سهاد بذراعك وتشبثتْ هي بخصرك حتى التصق صدرها بأضلاعك، وأنتما تخطوان ببطء بين محلات بيع الملابس والعطور، وتنظران إلى الأسعار الرخيصة مقارنة بالعراق وإيران، لكن لم يكن في حوزتكما سوى مائتي دولار، هي كل ما تبقى لكما بعد أن دفعتما ثمن انعتاقكما من الجحيم. ذهبتْ سهاد إلى دورة المياه، فسنحت لك الفرصة للتطلع بحرية إلى النساء بأجسادهن الرشيقة التي كأنها نُحتت من مرمرٍ طري يكاد الدم يُرى وهو يجري في عروق السيقان البضّة،

مكتبة الفكر الجديد

والنهود المتكورة بإتقانٍ وقد تحرر قسم منها من أسر القمصان والبلوزات الضيقة. عادت سهاد من دورة المياه بعد غياب تجاوزَ الربع ساعة، وبشكل لم تألفه من قبل، كأنها رمتْ سحنتها القديمة في مجرى الفضلات. وجه مشرق بابتسامة عريضة على شفتين شهيتين زادهما الروج الأحمر الخفيف انتفاخاً، وعينين أبرز الكحلُ سواد أهدابهما الطويلة. أطلقت شعرها الفاحم الطويل منسدلاً على كتفيها. رمتْ جبّتها الرمادية، وارتدت كنزةً خفيفة تكشف عن عنق طويلٍ، وتنورةً حمراء قصيرة على جوربين سوداوين ضيقين، يبرزان رشاقة فخذيها بوضوح. تجمدتَ أمامها، كأنك تراها لأولِ مرة، وبلا شعور منك احتضنتها بقوة. حاولتْ أن تتملص منك بدلعٍ أنثوي يحاول التجرد من قناع الاسترجال الذي رسمته سنوات النضال والمباهاة بالصلابة، إلا أنك أحطتَ جسدها بذراعيك، حتى شعرتَ بطراوة نهديها وهما يحتكان بصدرك.

" لماذا لا توجد في المطار غرفٌ خاصة للعشاق ليمارسوا الحب ؟ "

قلتَ مازحاً، فانفجرتْ سهاد ضاحكة، وقالت :

" على الأقل لكي ننسى الغرفة الطينية في كردستان. "

انقبض قلبك، وتجمدت الضحكة على شفتيك. أدركتْ سهاد سبب امتعاضك فأضافت كأنها تحاول إصلاح الخطأ :

" وغرفة أوردكاه أورمية.. والفئران التي كانت تتراقص جنب رأسينا في غرفة مولوي... "

رفعتْ رأسها نحوك وهي تحيط خصرك بذراعيها. تلفتتْ يميناً وشمالاً، ثم مدت شفتيها وأسبلت جفنيها، فطبعتَ عليهما قبلة، أعادتك إلى المكان الذي تقفان فيه الآن. حاولتَ أن تطيل القبلة، إلا أن سهاد

مكتبة الفكر الجديد

سحبتْ جسدها من بين ذراعيك. وضمتْ ذراعها تحت إبطك، ثم دفعتك بصدرها، وهي تردد :

" لنشرب نخبَ خروجنا من الجحيم.. "

طلبتُ كوباً من القهوة بالحليب، بينما طلبتَ أنت كأساً من الفودكا مع العصير. حينما أعادت إليك عاملة الكافتريا بقايا الخمسين دولار، سمعتَ سهاد تخاطب العاملة :

" سباسيبا. "

ثم أضافت جملة طويلة باللغة الروسية. التفتَّ إليها باستغراب فدفعتك بكتفها إلى الإمام لاوية عنقها بغنج.

عند نافذة كبيرة تطلّ على مدرج المطار، جلستما على كرسيين متقابلين. كانت سهاد ترتشف قهوتها ببطء، بينما كنت تنظر إليها بشهوة، وأنت تنفخ دخان سيجارتك كأنك تُخرج آهة مكتومة في صدرك لسنوات، ولكي تخفي علامات الهياج والقلق سألتها :

" لم أعلم أنك تعرفين اللغة الروسية. "

" أعرف بعض العبارات التي تعلمتها حينما كنت أنوي السفر إلى موسكو. "

قالت، فتطلعتَ إليها باستغراب لما تسمعه، وسألتَ مقطباً جبينك:

" متى كنتِ تنوين السفر إلى موسكو ؟ "

" ألم أخبرك بأني حصلت على بعثة زمالة من الإتحاد العام للطلبة بعد أن أنهيت البكالوريا ؟ "

" لا .. لم تخبريني بذلك. "

مكتبة الفكر الجديد

قلتَ متشككاً بذاكرتك، ثم أضفت :

" ولماذا لم تذهبي ؟ "

صمتتْ سهاد. حاولتْ أن تتهرب من الإجابة، إلا أن غياب فطنتك جعلك تلحّ بالسؤال لمعرفة سبب امتناعها عن الإجابة، فقالت وهي تتطلع إلى الطائرات الجاثمة على أرض المطار:

" بعد انتهاء علاقتي بصارم.. كرهتُ موسكو وكرهتُ الحزب الشيوعي.. كرهتُ نفسي.. كرهتُ كل شيء. "

" من هو صا... ؟ "

سألتَ ببلاهة، لكنك لم تكمل السؤال، إذ شعرتَ بأن قدمك قد زلّت فتدحرجتَ في وادٍ مظلم. ساد صمت بينكما. رفعتَ كأسك وشربت بقايا الفودكا دفعة واحدة. نهضتَ إلى الحمّام وأطلت المكوث فيه بعد أن استفرغتَ ما في معدتك. رميتَ على وجهك حفنات من ماء بارد جداً حتى شعرتَ بتجمد فكيك. لمحتَ وأنت في طريقك إلى الطاولة سهاد وهي تتطلع إليك بحذر، وحينما وصلتَ أدارتْ وجهها نحو جهة المدرج. بقيت واقفاً وأنت تنظر إلى ساعتك ثم قلت بطريقة آمرة تخفي انكسارك :

" اقترب الموعد.. لنذهب إلى البوابة !. "

فتحت سهاد حقيبتها اليدوية وراحت تبحث عن شيء لا وجود له. نهضتْ بارتباك فاصطدمت ركبتها بالطاولة. سقط كوب القهوة وكأس الفودكا الفارغ على الأرض. أحدث انكساره صوتاً مسموعاً هرعت على أثره عاملة الكافتريا وهي تتحدث بغضب. وضعتَ بكفها ورقة من فئة خمسة دولارات. تطلعتْ إليك فتغيرت ملامح وجهها، وراحت تكنس شظايا الكأس. تركتما المكان سريعاً متجهين إلى بوابة الإقلاع.

مكتبة الفكر الجديد

في الطائرة إلى برلين الشرقية، رمت سهاد رأسها على جهة النافذة، وأغمضت عينيها غير أن حركة أجفانها وارتعاشة شفتيها كانت تفضح إفتعالها للنوم، بينما كنتَ في أشدّ يقظتك، تعيد شريط سنوات حبكما، متوقفاً عند الإشارات والتلميحات التي كانت سهاد ترسلها إليك، لكن فطنتك كانت عاجزة عن إلتقاطها.

لم تمكث الطائرة في مطار برلين الشرقية سوى خمسٍ وأربعين دقيقة، أفرغت خلالها معظم المسافرين ولم يبقَ فيها سواكما، وثلاثة شبابٍ تدل ملامحهم على أنهم إيرانيون وعائلة من أب وأم وثلاثة أطفال سمعتهم يتحدثون باللغة الكردية.

في مساء خريفي ماطرٍ بغزارة هبطت الطائرة في مطار كوبنهاكن. فُتح باب الطائرة على دهليز ملتوٍ، في نهايته وقفت شابتان شقراوان إحداهما كانت تسأل باللغة العربية عمّن جاء لطلب اللجوء إلى الدنمارك، والأخرى كانت تعيد الكلام نفسه باللغة الفارسية. توقفتما عند الشابة التي تتحدث اللغة العربية فمدّت يدها مصافحة وهي ترحب بكما باللهجة اللبنانية. سارت في أروقة المطار الكبير وسرتما والعائلة الكردية خلفها.

" مَنْ أنتَ ؟ "

" أنا .. أنا الذي رأى كل شيء.. لستُ جلجامش.. بل تفوقت عليه.. فأنا الذي رأى بوابة انعتاقه الأولى.. يغطيها الدم.. صرخ باكياً فضاع صراخه في زغاريد النسوة الفرحات بمقدم الصبي الذي سيعوّض أمه عن المال والدنيا .. أنا الذي سيجعلها تزهو بالهيبة والناموس.. أنا الذي رأى قدره في عيني أمه.. أنا الذي تعلّم أبجدية الخطو على السفوح الحادة دونما أفق أو غاية.. أنا الذي سيقتل الوحش الساكن في البراري..

مكتبة الفكر الجديد

والذخر للملمّات الصعبة.. أنا الذي رأى كل شيء.. أنا الذي رأى موته.... "

" دعكَ من البلاغة الفارغة!.. من أنت ؟ "

" أنا..! .. الخارج من الحرب مصادفة. شاركتُ فيها كرامي مدفعية.. وكنتُ أقاتل عدواً لا ملامح له.. ولا أحمل في داخلي عليه أية ضغينة.. بل لو التقيته في منتصف الأرض الحرام لفرزت حريتي في الأرض.. أو وجهتُ إطلاقاتي نحو السماء.. ومددتُ يدي مصافحاً.. معتذراً عن وجودي في أرضه.. ولقلتُ له.. تعال نشرب الشاي وندخن سيجارتين في موضع مهجورٍ حتى تنتهي الحرب.. ما لنا وما للحرب.. دع الأوباشَ يتقاتلوا بينهم.. وإنْ خانتنا قدرتنا على التجاهل.. فسنهرب.. كل منا يهرب إلى الجهة المعاكسة.. إياك أن تستبدل وحشاً بوحش.. ولكن لكي نفتح ثغرة في جدار الأفق.. للنطلق إلى ما بعد.. أنا .. من أنقذته مؤامرة دبرتها حبيبته.. لم تطح به.. بل أنقذته من موت حقيقي لتصل به إلى مكانٍ آمنٍ أو مكان يؤجل الموت أو يغيّر قناعه.. هناك على قمم الجبال حيث التقيت بكائنات نسيت آدميتها.. تقاتل على جهات أربع.. رفضتُ ارتداء قناع البطولة أو قناع الأمل الذي قد يتحقق بعد بضوات الأوان.. فاتجهت شرقاً لأجتاز الحدودَ نحو العدو.. وهناك رأيت الوجه الآخر للحرب. "

" اختصرْ أرجوكَ.. فلست وحدك من ادّعى هذا.. لقد سبقك الكثيرون.. وبعدك يقف طابور طويل من المنتظرين. "

" .. وأخيراً. بعد رحلة بين معسكرات اللجوء والجواز المزوّر والخوف من الوجوه التي ترصد الزلل وفرح لحظة هبوط كفّ موظف المطار طابعاً على الجواز ختم الانعتاق من الجحيم حتى إقلاع الطائرة..

مكتبة الفكر الجديد

في الفضاء.. وقريبا من الله.. سمعتُ لأول مرة صوت دمي وهو يتحرك في شراييني.. وها أنا في هذه البلاد النائية شمالاً.. والتي لا تلوح على خارطة العالم إلا كنقاط ثلاث صغيرة كجزرٍ في أقيانوس شاسع.. أقف على تلّة بعيدة.. أنظر إلى الحرب الدائرة هنااااك.. طاوياً أصابع كفّي كمنظارٍ وهمي.. لأرى المشهد بعين من لا يخشى أن تصيبه شظية قذيفة أو رصاصة قنّاص.."

" وماذا ترى ؟ "

" لا شيء.. لا شيء سوى شياطين عابثة لا تعرف هدفاً محدداً لشرورها.. وهذا ما جعل عالمكم الذي بدأ متحمساً في نقل أخبار المعارك في الشهور الأولى للحرب.. يتخلى عن حماسه شيئاً فشيئاً.. بعد أن أدرك أن العبثَ وحده يدير دفّة الأحداث.. وأراح ضميره بمحاولات يائسة للتوسط بين طرفي النزاع.. عفواً.. أعني أطراف النزاع.. فتم التواطؤ مع الأطراف المتنازعة على عدم المساس بمصالحه الخاصة.. أما الأرواح التي زهقت وستزهق فهي فائضة عن الحاجة.. فلم يشغل نفسه بها.. ولضرورة إبقاء نماذج من هذه الكائنات لحفظها في المتحف الحربي.. فتح العالم أبواب إنسانيته المزعومة بوجه من يحالفه الحظ في الوصول إلى البرّ. "

.....

.....

" بابا.. بابا.. وصلنا أودنسا. "

استيقظتَ من سرحانك على صوت روزا، فرأيتها تنهض لتنزل حقيبتها الكبيرة من رفّ العربة. نهضتَ بتثاقلٍ كأن ثقل العالم كله قد تراكم على كاهليك.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖

مكتبة الفكر الجديد

رفعتُ رأسي فالتقتْ نظراتي بنظرات السائق. تطلع إليّ، كأنه ينتظر مني أن أقول شيئاً، وحينما أشحت بوجهي عن نظراته، ناداني بصوت يفتعل الود :

" هل ترغب حضرتكم في شيء ؟ "

هززتُ رأسي نافياً، فراح يؤكد :

" قلْ لي إذا رغبتم في أن نتوقف قليلا . "

لهجته الودية التي لا أعرف لها سبباً، شجعتني أن أعبّر عن رغبتي في تدخين سيجارة. فهزّ رأسه، وقال :

" حينما نعبر إلى جزيرة يولاند سنتوقف عند الطرف الثاني من الجسر. "

كانت السيارة قد اجتازت مدينة ميذل فاغت، ولم يبق سوى بضع دقائق لنصل مدينة فردريسيا . عدّل الشرطي الجالس جنبي قيافته، واضعاً يده على مسدسه وهو يتطلع إليّ.

انعطفت السيارة إلى جهة الشمال بعد أن اجتزنا الجسر بمسافة لا تزيد عن المائة متر، ثم أوقفها السائق جنب كشك خشبي يبيع المقانق المسلوقة والبطاطا المقلية. كان الثلج قد توقف عن الهطول وانقشعت غيوم تاركةً مساحات زرقاء صغيرة توارب من خلالها الشمس. أزاح الشرطي الثاني ثلجاً تراكم على مصطبة خشبية بينما ذهب السائق لشراء المقانق. سألني قبل ذلك إنْ كنتُ راغباً في تناول بعضٍ من المقانق. وحينما شكرته رافضاً، قال :

" توجد مقانق بالدجاج وليست بلحم الخنزير. "

مكتبة الفكر الجديد

فأكدتُ على عدم رغبتي في الأكل. عاد يحمل صحنين ورقيين فيهما أصابع المقانق. وضعهما على المصطبة ثم عاد إلى الكشك ليجلب ثلاثة أكواب من الورق يرتفع منها بخار القهوة. ناولني أحدها وهو يصفّر لحناً ويهز رأسه بمرحٍ مفاجئ. كانت طريقة تعامله معي توحي بأنه يريد أن يفتح حديثاً، وصدقَ حدسي، حينما وقف جنبي، واضعاً ذراعه الثقيلة على كتفي وهو يتطلع إلى غيمةٍ تشكلت على شكل رأس تنين، أو هكذا رأيتها. كان متردداً، أو لا يعرف كيف يفتح الحديث معي، فاختصرتُ عليه المسافة، إذ سألته :

" هل تودّ أن تقول شيئاً ؟ "

" نعم. "

قال وهو يربت كتفي. رفع عنقه، متطلعاً إليّ بطرف عينه، وقال :

" أرجو أن تلغي صورة الشرطي الذي يقف الآن أمامك.. وتعذر فضولي.. لتجيبني عن سؤال حيّرني منذ رأيتك أول لحظة. "

ابتسمتُ له، فقال :

" لم تبدُ عليك أية علامة تدل على أنك قاتل... "

أغمضتُ عينيّ علامة امتعاضٍ من سؤاله، وحينما لم يحصل على ردّ مني، شعر بالحرج فحاول أن يغير السؤال :

" ولكن الأغرب من هذا هو أنك لا تبدو نادماً على فعلك. "

سحبتُ نفساً عميقاً من السيجارة وقلت بصوت هادئ :

" هير... "

" كنوز. "

مكتبة الفكر الجديد

قال معرفاً باسمه وراح يتطلع إلي بودّ، منتظراً إجابتي، فقلت :

" هير كنوذ .. الندم يحدث بعد أن يخرج الإنسان من دائرة الخطأ ."

قطّب جبينه، محاولاً التركيز على ما قلته، فأضفت مركّزاً على طريقة القول أكثر من المعنى:

" أحياناً الحياة لا تترك للمخطئ فرصة للندم.. فما أن يرتكب فعلاً ويكتشف بأنه كان خطأً .. أو قبل أن يكتشف.. حتى توقعه في خطأ آخر... "

" ..... "

" ... وهكذا حينما تكون حياة الإنسان متوالية أخطاء.. يجد المخطئ ألف مبرر لتبرير ما ارتكبه من أخطاء.. "

" لم أفهم بالضبط ما تعنيه. "

قال ثم استدرك كلامه، معترضاً :

" ولكن.. الإنسان هو من يقرر أفعاله ولا توجد قوة تجبره على فعلٍ لا يرغب في ارتكابه. "

هززتُ رأسي، متوقعاً منه هذا الجواب، فقلت :

" ليس الأمر كذلك في كل الأحوال.. أحياناً يكون الإنسان خاضعاً إلى إرادة قوة خارجةٍ عن إرادته. "

قبل أن يعترض على كلامي، استأنفتُ :

" ... وأحياناً يحمل الإنسان نفسه قوتين متناقضتين تتجاذبانه نحو قطبيهما. "

مكتبة الفكر الجديد

هزّ رأسه، غير مقتنع بما قلته، فقال ليبرر اختلافنا في الرؤية :

" أعتقد أن التقاليد الاجتماعية والظروف السياسية في البلدان المتخلفة تلعب دوراً كبيراً في تشكيل شخصية الفرد . "

هززت رأسي متفقاً مع ما قاله، على الرغم من امتعاضي من طريقة تعبيره الإستعلائية، لكني لم أترك له مجالاً كي يتمادى في استعلائه، فقلت :

" الجريمة موجودة عند كل الشعوب. "

اعترضَ على كلامي، وعلى وجهه علامات استخفاف بما قلت. صمتَ قليلاً ثم قالَ :

" سقطَ صدام حسين.. وجاءت لبلدك فرصة كبيرة لبناء نظام ديمقراطي.. ولكن يبدو أنكم لم تحسنوا استغلالها . "

" لا . "

قلتُ معترضاً، وأضفت بطريقة لا تخلو من رغبة في الرد على استعلائيته:

" هذه لعبة مصالح.. ولا تنسَ تدخل أمريكا والغرب في فرض سياسته على بلدي بسبب مصالحها الإقتصادية.. واللامبالاة التي تبديها الشعوب في ما يحدث خارجَ بلدانها من مآسٍ. "

شعر بأنه وصل إلى طريق مسدود في النقاش معي، أو ضاق صدره عن تقبل اتهامي لجهات خارجية ومن ضمنها الدنمارك في خراب العراق، فراح يردد :

" الضحية تقلّد جلادها ... دائماً .. دائماً . "

مكتبة الفكر الجديد

الرغبة في إنهاء هذا النقاش دفعتني إلى القول :

" ربما .. وربما حينما تتعود الضحية على الظلم الذي يقع عليها .. تبدأ بتقليد جلاّدها .. لا حباً أو إعجاباً به كما يتصور البعض.. بل انتقاماً من نفسها . "

هزّ رأسه دون أن يبدي علامة تشير على اتفاقه أو اختلافه مع ما قلت، فراح يتطلع إلى زميله الذي انشغل بالتهام المقانق ومسح الكاتشوب الذي سالَ على ذقنه. كان يصغي باهتمام لحديثنا دون أن يُظهر رغبةً في الإشتراك في حديث حاول أن يفتحه معي قبل ساعة، لكنه لم يحصل مني على نتيجة.

لا أدري إنْ كان السائق قد أدرك ما قصدته أم لا، ولكن يبدو أن معادلة الضحية والجلاد قد ذكّرته بسؤالٍ ليس بعيداً عن الموضوع، فسألني :

" هل رأيت مشهد شنق صدام حسين ؟"

" نعم. "

وقبل أن يسألني عن رأيي، قلت :

" الأمر يختلف مع صدام.. فهذه قضية سياسية.. إذ ما نراه من تبادلٍ للأدوار أو الأقنعة بين الجلاد والضحية.. هو ضمن مسرحية.. ظاهرها كوميدي وباطنها مأساوي.. وضحاياها النظّارة وليس من أوكلت له مهمة تمثيل دور الضحية.. مسرحية لا تنتهي بمقتل شخصياتها .. بل بحرق المسرح على روّاده. "

لا أظن أنه فهم كلامي، أو أنه فهمه ولم يرغب في التورط في حديث سياسي قد يزعزع ما اعتاد أن يعرفه من خلال وسائل إعلام

مكتبة الفكر الجديد

بلاده التي شاركت مع أمريكا وبريطانيا في الحرب على العراق، ولاتزال قواتها في مدينة البصرة، ولكي يغيّر الموضوع، سألني :

" قلتَ لي إنك لم تعد إلى العراق بعد سقوط نظام صدام حسين. "

وقبل أن يسألني عن السبب، قاطعته :

" بلى.. عدتُ. "

ارتدّ إلى الخلف قليلاً وهو يتطلع إلي مستغرباً، فأضفت :

" عدتُ إلى العراق... ولكني ما وصلتُ. "

" كيف ؟ "

سألني وراح ينظر إليّ بتركيز، منتظراً أن أوضح كلامي.

أعترفُ بأني ما عدتُ إلى العراق شوقاً لأهل أو وطن، فقد اكتشفتُ ومنذ اللحظات الأولى لسقوط نظام صدام حسين ودخول الجيش الأمريكي إلى بغداد، وما صاحبه من فوضى واندفاع الناس إلى السرقة والتخريب، أن ما يجري هناك وأراه هنا على شاشة التلفزيون يجري على سطح كوكب لا أعرفه. الأماكن التي خبرتها ومشيتُ في شوارعها، كنتُ أراها وقد فقدتْ هويتها وصارت أضيق كما لو أني أراها من علوّ شاهق، معالم عمرانية وبنايات تحولت كشواهد قبور مر عليها زمن طويل فاندرست، الغابات والبساتين فقدت اخضرارها فبدت بلون ترابي، والنخيل بعضه مقطوع الرؤوس والبعض الآخر تدلت منه أعذاق يابسة كثديي عجوز، الشوارع ضيّقة تتكدس فيها العجلات والنفايات تتراكم على أرصفتها، النهر الذي كان يمر من أمام بيتنا وكنتُ أراه يمتد حتى الأفق وأخاف من عمقه وفيضانه غدا الآن ساقية صغيرة وتتوسطه جزرٌ تراكمت عليها جثث الحيوانات النافقة، ولا يستحق سمعته التي

مكتبة الفكر الجديد

شغلت حيزاً كبيراً في كتب التاريخ والجغرافيا. الناس نياماً يمشون في خطى مرتبكة والخوف حفرَ تجاعيده على الوجوه، رقابهم متلعة نحو السماء كأنهم ينتظرون موتاً يهبط عليهم من السماء أو ينتظرون فَرَجاً طال غيابه سينزل عليهم من ربٍّ نسي أن له على هذه الأرض أناساً يستحقون الرحمةَ التي لم يعودوا يتذكرونها، أما الحضارة التي سوّدت ملايين الصفحات في وصفها والتغني بها لم يتبقَ منها سوى أحجار يتناقلها تجّار الآثار لتوضع في محل بعيد عن موطنها، كأن بابل لم يتبقَ منها سوى بلبلة الألسن، وأسرارٍ تثير فضول أصحاب نظرية المؤامرة وحلّ الشيفرات الغامضة.

أعرفُ أن أكثر من ثلاثين عاماً من الحروب والحصار كفيلة بأن تترك آثارها على الناس والحجر، وأعرف أن العين غيّرت منظار رؤيتها للأشياء، لذلك لم تكن بي رغبة في العودة إلى العراق كي احتفظ في ذاكرتي بتلك الصورة البهية لوطن طفولتي، لكنّ الذي غيّر رأيي وأيقظ بي حنيناً سابتاً، هو حاجتي إلى الإعتراف، الإعتراف بماذا ؟، لا أدري. كنت أعرف أن أمي توفيت في سنة غربتي الأولى وأهلي تشتتوا بين ميت حقيقةً وميت مجازاً، والمسافة لم تعد في المكان وحده، بل كأن قروناً من الزمن تفصل بيننا، حتى هم لم يكلفوا أنفسهم أن يرفعوا يوماً سمّاعة التلفون ويسألوا عني. لم استغرب حالهم فالذي لا تراه العين يسلوه القلب كما يقال، لكني في لحظة قراري العودة كنت بحاجة لأمي، بحاجة لوجودها حتى لو مجرد قبر، أجلس عند شاهدته وأروي غربتي، فهي الوحيدة التي ستسامحني حتى قبل أن تسمع اعترافي وتعرف أخطائي. لا أدري.. هل هو حنين للطفولة أو محاولة لاستعادة شيء من قدسية هذا الوطن العاهر، تبرر لي عودتي.

مكتبة الفكر الجديد

في السنوات الخمس الأخيرة، أصاب حياتي وأنا في الدنمارك ما أصاب العراق من تدهور، فعلاقتي مع إسراء قد انتهت بجرحٍ فرض ألمه بأثرٍ لا يمحى، وكذلك علاقتي بسهاد تحولت إلى تواطؤٍ لا يقل جرحه عن القطيعة، وابنتاي اللتان أشكّل لهما القاسم المشترك لا تربطهما علاقة الأخوة، وفي الوقت نفسه تحول الحب بيني وبينهما إلى حب من طرفٍ واحد وهذا ما زادَ من عزلتي فضاقت عليّ دائرة الغربة حينما أصبحتُ هدفاً لسهامٍ كثيرة لا أعرف من أية جهة تنطلق نحوي.

قلتُ، سأقتفي أثري في العودة، لعلّي أرى على صخرةٍ إشارةً غفلتُ عن قراءتها، تشير إلى اتجاه الخديعة أو تصحيح المسار، لعلّي أكتشف نفسي حتى لو بعد فوات الأوان. هذا ما كان يدور في ذهني وأنا في الحافلة التي كانت تخترق صحارى مترامية الأطراف ودهاليز معتمة لم أرها من قبل. كانت الحافلة وهي تقترب من بغداد بسرعة جنونية ترتفع أحياناً عن الأرض حتى لتبدو أرض الوطن وكأنها في قعر وادٍ مظلم، وأحياناً أخرى كانت تغوص في أعماق ساخنة فتخيلني والمسافرين كأننا أجداث في مقبرة جماعية. وفي كلا الحالين كانت وجوه العائدين تبدو مطموسة الملامح، تتشابه كأنها قناع لشخص واحد، والأجساد متجمدة كأنها هياكل لأموات جيء بهم لكي يمثلوا دور الضحايا المبتهجين بموت جلادهم، حتى سائق الحافلة الذي لم أرَ غير قفاه كان متجمداً على المقوّد دون أن يبدي أية حركة. كنتُ أراقبهم بحذر وفي داخلي يمور سؤال حيّرني مذ غادرت العراق قبل أكثر من عشرين عاماً، ولم أجد له جواباً:

" أيّ وطن هذا.. الخروج منه بهجة والعودة إليه غمّ ؟ "

دخلنا مدينة الفلوجة، فرحتُ أنظر من نافذة الحافلة لأرى آثار ما جرى في هذه المدينة من معارك، تناولت مجراها وسائل الإعلام في

مكتبة الفكر الجديد

العالم حتى طغى اسمها على اسم هيروشيما. لم أر سوى مدينة مهجور كأن أحجارها وحدها استيقظت على هول ما حدث أمس، إذ لم أرَ أيّ حركة لكائن بشري أو طائر في سمائها، سوى جماجم تدحرجها الريح فيرتفع صفير مرعبٌ لم أستطع تمييزه، إنْ كان صفير رياح أم صفّارات إنذار تنذر بغارة جوية تشنها الطائرات القادمة من خلف البحار، حتى مئذنة الجامع كانت مقطوعة الرأس، تنزف دعاءً مبحوحاً كشخير ذبيح تخلّى عنه خالقه، صامّاً أذنه عن سماع الأنين والتوسل الذي يفطر قلب الحجر. كان سائق الحافلة قد زاد من سرعتها وهو يجتاز المدينة المهجورة كأنه يجتاز نفقاً مظلماً.

لاحت منائر الكرخ، فازدادت نبضات قلبي خفقاناً، حينما ظهرت أولى المعالم التي ارتسمت في ذاكرتي. اختلط الفرح بالخوف. التفتّ إلى الجالس جنبي لكي أشاركه فرحة الوصول، فرأيته وقد تحول إلى مومياء كأن سنوات طوالاً مرّت على موتها. هل أنا في كابوس سأستيقظ منه بعد قليل لأجد نفسي سابحاً في عرقي، مردداً:

" أووووه، ما أرحم المنفى... ما أقسى الوطنَ. "

صدقَ حدسي حينما توقفت الحافلة فجأة، كأن انفجاراً حدثَ في أحد دواليبها. فُتح الباب وصعد ثلاثة رجال ملثمين يحملون بنادق قصيرة تدلت من أكتافهم. تطلعوا في وجوه المسافرين بنظرات سريعة ثم اندفعوا داخل الحافلة بحركة تدلّ على أنهم جاءوا من أجل اقتناص فريسة حددوا ملامحها مسبقاً. توقف أحدهم عند رأسي بينما وقف الآخران خلفه وقد وجّها فوهتي بندقيتيهما نحو رأسي. أشار لي قائدهم بحركة من يده لإبراز هويتي، فأخرجت له جواز السفر الدنماركي. تطلع في صفحته الأولى وراح ينقل نظرته بين وجهي وصورتي في الجواز.

مكتبة الفكر الجديد

" سامي.. عبد الحسين.. كاظم. "

قرأ اسمي ببطء. هز رأسه بحركة مبهمة المعنى، ثم انفجر ضاحكاً، فجاراه الآخران بضحك كفرقعة متفجرات. انقضّ قائدهم على كتفي بقبضة حديدية بينما مسكني آخر من ذراعي ساحباً إياي نحوه. تطلعتُ إلى المسافرين لعلّ أحدهم يعترض أو يتوسل بالمختطفين ليتركوني أكمل الرحلة التي لم يتبق على نهايتها إلا القليل. لم يتحرك أحدهم، حتى أعينهم كانت أنظارها ثابتةً على نقطة بعيدة. تدحرجتُ من الحافلة وسقطت على الأرض. وجّه لي قائدهم ضربة بأخمص بندقيته فانقطع نَفَسي بينما مسكني الآخران كلاً من ذراع وراحا يسحلانني إلى الجهة الثانية من الشارع. التفتّ قليلاً فرأيتُ الحافلة قد انطلقت بسرعة كبيرة ودواليبها لا تمس الأرض.

على الجانب الثاني من الشارع رأيت مجموعة من الرجال يرتدون السراويل الفضفاضة والدشاديش السود، تتقاطع على صدورهم أشرطة الإطلاقات، وعلى رؤوسهم كوفيات سود، تتدلى منها خصلات طويلة من شَعر أسود مغبرّ، ولم يظهر من وجوههم سوى عيون حمر يتقادح الشرّ فيها. جاؤا نحوي وهم يخوضون في الرمال كأنهم خرجوا من عتمة. أحاطوني بدائرة كنتُ أنا مركزها، باركاً على ركبتيّ وعلى جانبي رجلان يوجهان بندقيتيهما إلى رأسي، أما الآخرون فقد تسمروا في أماكنهم، وهم يتطلعون إلي بنظرات ساهية بلهاء، ثم شيئاً فشيئاً تداخلوا ببعضهم حتى صاروا ثعباناً كبيراً راح يدور حولي بسرعة فائقة، فشعرتُ بأني على وشك الإغماء. لا أدري كم من الوقت مرّ حتى تباطأتْ سرعة دورانه بإيقاع البدء نفسه. توقفَ الثعبان عن الحركة، فعاد الرجال إلى هيئاتهم الأولى. قالَ أحدهم :

مكتبة الفكر الجديد

" سوفَ أدخلكَ طاقيتي كي تخرجَ أرنباً. "

ضحكَ الجميعُ، هازين أكتافهم بحركةٍ رعناء، إلا واحداً منهم، كنتُ أحسبُ أنه سيخلع عني أطيافهم، غير أنه جاء بمنشارٍ صدئ وراح ينشر ساقي، وببرودةِ محايدٍ قال لي :

" اسمعْ يا عبدَ الجبار! جاء في كتاب (أخبار الموتى)، وفي (صحيح الأنباري) أن من علامات الساعة الكبرى بأن يقطّع جسدُ ... "

" ولكني لستُ عبد الجبار. "

قلتُ ببلاهة، كأني أحاولُ إبعادَ تهمة أو توضيحَ التباس قصد. توقفَ قليلاً مستنكراً وقاحةَ اعتراضي، وقال بسخرية :

" أنتَ !!؟ "

فانفجرَ الجميع ضاحكين.

ارتفع صوت أحدهم صارخاً وتقدم نحوي، فانفلق جمع المتجمهرين حولي. كان شيخاً قد تجاوز الثمانين من العمر، لحيته البيضاء تغطي صدره العاري. تطاير الزبد من فمه وهو يردد :

" ثبتت الحجة.. ثبتت الحجة. "

تطلع الآخرون إليه برهبة وإجلال، فأضاف :

" إنه يرفض أن يكون عبداً للجبار.. فهو رافضيّ.. وجبَ عليه القتل. "

" ما عنيتُ هذا.. ولكن اسمي سامي.. وليس عبد الجبار. "

قلتُ بتوسل كي يفهموا قصدي، إلا أن الشيخ تطلع إليّ بصمت، ثم مسكني من شعر ناصيتي، رافعاً رأسي نحوه. تطلع إلي بتقزز ثم بصق على وجهي وهو يستعيذ بالله من شرّ الشيطان الرجيم ومن شرّ

مكتبة الفكر الجديد

الخوارج والروافض المنحرفين عن دين الحق. خاطبني بغضب، محركاً إبهامه بوجهي حتى لامست أرنبة أنفي:

" أيها الزنديق.. أيها الخنزير.. ترفض أن تكون عبدَ الجبار.. لكنك لا ترفض أن تكون سامي عبد الحسين. "

أشار برأسه إلى أحدهم، وكان صبياً بوجه مصفرّ وزغب خفيف عند حنكه المدبب. تقدم نحوي ضاحكاً برعونة وهو يهزّ سيفاً قصيراً، بينما انقضّ علي آخر من الخلف بضربة من ركبته عند منتصف عمودي الفقري، فشعرتُ بأن جسدي كله قد شُلّ، وسقط رأسي مصطدماً بالأرض الرملية. ربض الصبي على ظهري، غارزاً ركبته في ظهري. بينما كان الآخرون يرددون تراتيل لم اسمعها من قبل. رفع الصبي رأسي من الخلف فرأيت الأفق مدلهماً والشمس حمراء.. حمراء مثل قطعة كبد، شعاعها خيوط من دم. مرر سيفه على عنقي وهو يضحك فحزّ عنقي بجرح خفيف، ثم توقف. رأيتُ خيط دم ينحدر على صدري ويقطر على الأرض. على الرغم من الألم الشديد الذي شعرتُ به إلا أني كنت فرحاً لرؤية الدم، فقد تذكرتُ ما كانت تردده أمي حينما تسمع أحدنا وهو يروي ما رآه من كابوس في ليلة أمس :

" الدم يُفسد تأويل الحلم. "

كنتُ أطمئن نفسي بأني سأستيقظ حالاً من الكابوس لأرى نفسي في الدنمارك، إلا أني لم أفق حتى بعد مرور وقت طويل، سمعت خلاله الرجال وهم يضحكون ويرددون تراتيلهم الغريبة. عاد الصبي وربض على ظهري مرة أخرى. ورفع رأسي، شادّاً شعري نحوه. مرر سيفه على عنقي بحركة بطيئة. في البدء شعرت بألم شديد، إلا أن الألم توقف فجأة بعد أن شعرتُ بأنه أكمل قطع الشريان، ولم أعد أسمع شيئاً سوى

مكتبة الفكر الجديد

صوت دمي، شاخباً وهو يتدفق من عنقي المقطوع. شعرتُ براحة بعد أن أزيح الثقل الرابض على ظهري، ورأيتني سابحاً في محيط من البياض.

لا أدري كم من الوقت مرّ، حينما سمعتُ صوت نفير، حسبته نفير إسرافيل. دبّت الروح في جسدي ثانيةً، وتحرك جَدَثي استعداداً للحساب. كنت واثقاً بأن الله سيخجل حينما يراني أقف أمامه مقطوع الرأس، وكنت سعيداً بأني سأراه أخيراً وحوله ملائكته شامتةً بعناده وغروره الفارغ الذي دفعه إلى ارتكاب جريمة الخلق ولم يستمع إلى نصيحتها. سيغفر لي كل ذنوبي، ليس لأنه رحيم، بل لأنه سيدرك ما ارتكبه من حماقات، حينما لم يصغِ إلى ملائكته وهي تحذره من خلق الإنسان الذي سيملأ الأرض دماً وطغياناً، وحينما أرسل أنبياءه المرضى فأشاعوا القتل حتى فاضت الأنهار بالدم فغاضت الأرضُ في الأحقاد.

حركتُ ذراعيّ في المكان المحيط بجسدي باحثاً عن رأسي المقطوع، لم أجده. تلمستُ جسدي فشعرت بثقل بين كتفيّ. مددت إحدى ذراعيّ بأقصى ما أستطيع متلمساً ظهري، فاصطدمت كفي بالرأس. تشبثتُ به بكلتا كفيّ كيلا يسقط على الرمل، حتى رفعته عن ظهري. حملته بحذر، وأنا أنهض من كبوتي. احتضنته. ضممته إلى صدري بخوف، ثم رفعته وأعدته إلى موضعه. أزلتُ الدمَ الذي تجمد في حفرتيّ عينيّ.. فتدفق سائل ساخن على وجنتيّ. أخذت بعضاً منه وتذوقته فعرفتُ من ملوحته بأنه دمع. مررتُ إبهاميّ على عيني، انفتحتا شيئاً فشيئاً فرأيت المكانَ، المكان نفسه الذي ذُبحت فيه، صحراء تمتد من الأفق إلى الأفق، والشمس لا تزال حمراء.. حمراء مثل قطعة كبد مُفصدة. نهضتُ بتثاقل. تلفّتُ، فلم أرَ أحداً. انطلقتُ راكضاً باتجاه بغداد التي لم أعد أرى منائرها، فقد حالت بيني وبينها عاصفة رملية سدّت أفق رؤيتي. ركضتُ باتجاه الشمس.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ..

مكتبة الفكر الجديد

ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضت....

... لكني لم أصل إلى بغداد.. بل عدتُ إلى نقطة انطلاقي الأولى. لم أفهم كيف حدث هذا، وكيف عدتُ راكضاً إلى الوراء، حتى تلمستُ رأسي فرأيته مقلوباً، ولكي أتأكد من هذا الأمر، تطلعت في المرآة فرأيتُ قفاي.

أفقتُ فوجدتني راقداً على سدية أو سرير ضيّق وإلى جانبي يقف الشرطيان. حاولتُ النهوض إلا أن أحد الشرطيين وضع يده على صدري ضاغطاً عليه برفق وأعاد رأسي إلى موضعه، عندها تذكرت أمر الرأس المقطوع أو المقلوب. مددتُ يدي متلمساً رأسي، فتأكدتُ من وجوده في موضعه الصحيح. كان الشرطيان ينظران إليّ بشفقة وبحذر.

" أين أنا الآن ؟ "

سألتُ، فرد عليّ أحدهما :

" لا تخف.. لا تخفْ.. أنت الآن في مستشفى فردريسيا. "

" لماذا ؟ "

سألتُ مرعوباً، فردّ عليّ السائق بعد أن توضحت لي ملامحه جيداً :

" سقطتَ فجأة عن المصطبة.. وحدثت عندك غيبوبة.. فنقلناك إلى المستشفى. "

دخل الطبيب وكان يبدو بلحيته البيضاء قد تجاوز الستين من العمر، تتبعه ممرضتان شابتان. ابتعد الشرطي قليلاً حتى وقف عند الباب. وقف الطبيبُ عند رأسي بينما وقفت المرضتان على جانبيّ وهما تتطلعان إليّ بحذر. انحنى عليّ مقرباً وجهه، فارتسمت أمامي

مكتبة الفكر الجديد

صورة الشيخ الثمانيني الغاضب الذي أصدر أمر ذبحي. وضع يده على جبهتي، وسألني بصوت هامس :

" هل حدث هذا الأمر معك من قبل ؟ "

" أيّ أمر ؟ "

سألتُ، فأعاد عليّ سؤاله موضحاً :

" هل حدث وأنْ فقدتَ الوعي من قبل ؟ "

" لا . "

أجبتُ، لكني استدركتُ سريعاً :

" بلى.. بلى.. حدث الشيء نفسه.. قبل شهرٍ تقريباً . "

هز رأسه، ثم قال بثقة :

" الأمر لا يشكلّ خطورة.. على الأقل في الوقت الحاضر.. فنبضات قلبك طبيعية.. وكذلك ضغط الدم.. "

التفتَ نحو الشرطي، وخاطبه :

" بإمكانه مغادرة المستشفى ومتابعة الرحلة. "

شعرتُ بأنه يحاول التخلص من قاتل خطرٍ. تطلع إلي بنظراتٍ باردة وهو يردد :

" مع السلامة.. كنْ بخير. "

غادر الغرفة تتبعه الممرضتان بخطى حذرة كأنها لا تلامس الأرض. نهضتُ عن السرير، فمدّ الشرطي يده لمساعدتي. مسكني من ذراعي ونحن نغادر قسم الطوارئ في مستشفى مدينة فردريسيا . في الباب وجدنا السائق واقفاً جنب سيارته وهو يتحدث بالتلفون غاضباً. ما أن لمحنا خارجين، حتى أغلق التلفون وهرع نحونا مسرعاً.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

مكتبة الفكر الجديد

حينما وصل القطار إلى مدينة هيذرسلو الجنوبية، لم تجد أحداً بانتظارك، على الرغم من أنك اتصلت بإسراء حينما تحرك القطار من محطة مدينة فايله، لتخبرها بأنك ستصل إلى محطة هيذر سلو بعد ساعة ونصف. وأكدتْ لك بصراخٍ فرحٍ بأنها ستكون بانتظارك بعد أن توصل طفلها إلى مدرسته.

وقفتَ على رصيف المحطة، ورحتَ تتطلع في وجوه النساء ذوات الملامح الشرقية لتطابق بينها وبين الصورة المطبوعة في ذاكرتك لإسراء، حتى غادر آخر المنتظرين، ولم يبقَ في المحطة سوى امرأة واحدة تجلس على مصطبة تبعد ما يقارب العشرين متراً عن موقع وقوفك. لم يخطر في ذهنكَ أن هذه الجالسة هي التي تبحث عنها، فهذي امرأة ترتدي جلباباً طويلاً، وتضع غطاءً على الرأس وتلفّ رقبتها بشال صوفي، فلم يظهر منها سوى نصف وجهها. اتصلتَ بإسراء على تلفون البيت، فكان يرنّ ولا أحد يرفعه فتأكدتَ من أنها في الطريق إلى المحطة. رحتَ تخطو على رصيف المحطة كأنك بانتظار قطار قادم، وتردد أغنية عراقية عن الحبيب الذي جاء على الموعد فلم يجد حبيبته. وصلتَ إلى المصطبة حيث تجلس المرأة. استرقتَ النظر إليها فوجدتها تبتسم. تجاوزتها مشغولاً بترديد الأغنية، وإنْ كانت ملامح وجهها التي حاولتْ أن تخبئه بالنظر إلى الأرض تشبه كثيراً صورة إسراء الموجودة على صفحتها في الماسنجر، إلا أنك تجاوزتها بكبرياء، حتى وصلتَ إلى نهاية الرصيف.

من المصادفات الغريبة أن اليوم كان الأول من نيسان، وقد مرّت سنة بالضبط على تعارفكما في الماسنجر. ولأن لهذا التأريخ خصوصية

مكتبة الفكر الجديد

معروفة، فقد بقي تأريخ تعارفكما عالقاً في الذهن. في البدء كانت دردشتكما تقتصر على الوضع في العراق، وما يخلفه الحصار المفروض عليه من مشاكل إقتصادية واجتماعية. وعن الأعداد الكبيرة من العراقيين الذين يغادرون إلى الأردن وسوريا ثم بعدها يتوزعون على بلدان العالم، وعن وضع اللاجئين العراقيين في الدنمارك وقوانين الاندماج في المجتمع وصعوبة اللغة الدنماركية. دعتك مرة للدخول إلى إحدى غرف الحوار أو الـ (Paltalk) وكان النقاش محتدماً تلك الليلة حول تأريخ الحزب الشيوعي العراقي وسياسته وموقفه من الأحداث الجارية الآن. أخذتَ المايكروفون وتحدثت عن تجربتك في الحزب منذ تشكيل الجبهة الوطنية مع حزب البعث في بداية السبعينات وحتى اليوم، وعن الأخطاء التي رافقت التجربة. أبدت إسراء إعجابها بتجربتك وبأسلوبك الهادئ في النقاش على الرغم من أنها لا تعرف شيئاً عن تأريخ الحزب الشيوعي ولم تكن مهتمة بالأمور السياسية. تكرر تبادل الإعجاب بينكما، وتحول الحديث بينكما إلى الأمور الشخصية، فعرفتَ بأنها من سكنة حي اليرموك ببغداد وأنها أكملت دراستها في كلية الزراعة، وتقيم الآن في مدينة هيذرسلو القريبة من الحدود الألمانية، وأنها وصلت مع زوجها إلى الدنمارك قبل ثلاث سنوات عبر الأردن الذي أقاما فيه لمدة سنتين، وأن لها ولداً عمره ست سنوات، وقد تركها زوجها بعد أن أقام علاقة مع امرأة دنماركية. في المقابل أخبرتها أنت بشيء عن حياتك في العراق وطريقة وصولك إلى الدنمارك، مركّزاً على فتور علاقتك العاطفية والجسدية مع زوجتك. أصبحت حواراتكما برنامجاً يومياً. استطعتَ أن تلمسَ لهفتها في انتظارك، فما أن تفتح الماسنجر حتى تضاء النقطة الخضراء عند اسمها كأنكما تدخلان في لحظة واحدة. ترددت بينكما عبارات الشوق والإلفة الخاصة، مثل " اشتقت

مكتبة الفكر الجديد

إليك "، " اسلمْ لي "، " احتاجك "، وكنتَ تبادلها العبارات نفسها مضيفاً إليها عبارات الغزل بصورتها وعمق نظراتها وطريقة قَصّة شعرها الفاحم، وإنْ كنتَ تحبه أطول مما هو عليه الآن، منسدلاً على ظهرها وتغطي خصلة منه جانباً من وجهها، فوعدتك بأنها ستطيله " من أجلك.. حاضر.. أنت تأمر.. ".

كان الوقت ظهراً، وكانت سهاد في العمل، وروزا لم تعد من المدرسة بعد، حينما اتصلتَ بها بالتلفون. جاء صوتها جافّاً وهي ترد على إتصالك، حتى بدت كلمة (ألو) وكأنها شتيمة يطلقها أحد ما على مسمع متصلٍ مشاكس. حينما أخبرتها باسمك، صمتتْ ولم تسمع على الطرف الآخر سوى صوت شهيقها وتنهيدات مرتعشة. كررتَ نداءك مردداً اسمها بصوت هامسٍ عدة مرات حتى جاءك صوتها بعد سعلةٍ مفتعلة، مرحباً بارتجافةٍ لم تعرف مدى صدقها. تلعثمتَ وتبخر الكلام، فاعتذرتَ عن إتصالك في وقت غير مناسب :

" آسف.. يبدو أنك كنت نائمة.. وقد أيقظتك.. عذري أني قلقت عليك.. بعد غيابك ليومين عن الماسنجر. "

ورحتَ تكرر كلمات الاعتذار، وقبل أن تغلق التلفون، جاءك صوتها ناعماً رقيقاً :

" لا.. على العكس.. كنت مضطجعة على الصوفا. "

ثم أضافت وهي تتمطى وتطلق صوتاً كأنه دبيب شهوة حذرة :

" كنت أنظر إلى السقف.. وأفكر فيك. "

ارتجف صوتك، وبدون وعي منك مررتَ كفك على صدرك، وقد انتصب شعره كأشواك قنفذ.

مكتبة الفكر الجديد

" وأنا أيضاً مضطجع على الصوفا.. "

قلتَ وأسرعتَ لتضطجع على الصوفا كأنك خائف من أن تكتشف كذبتك. انتظرتُ أن تكمل بقية الجملة لتتطابق مع جملتها، إلا أنك لم تكن فطناً، فسألتك :

" وماذا تفعل ؟ "

" أداعب شعر صدري وأتخيل يدك. "

نطّت منها شهقةٌ، كأنها فوجئت بإيلاج عنيف، حتى سمعتَ ارتجاف يدها وارتعاشتها من خلال صوت احتكاك سمّاعة التلفون بخدها، فراحت تردد :

" أحبك.. أحبك.. أحتاجك.. "

فأجبتها على الفور :

" أحبك.. أشتهيك.. أشتهيك جدا.. "

ارتفع صوت شهيقها وزفيرها، فافتعلتَ صوت لهاثٍ وتأوهٍ. تحول التأوه لغة الحوار بينكما بضع دقائق، حتى سمعتها تردد بصوتٍ مرتعش:

" تعال.. تعال.. "

فرحتَ تردد بصوت واثق :

" معك.. على الصوفا.. معك.. أتطلع في عينيك.. وأمسد شعرك الطويل.. أشم عطرك.. عطر أنوثتك.. أقبل عينيك.. "

كنتَ تردد هذه الكلمات وتصغي إلى ما يدور على الطرف الآخر، فتأكدتَ من استجابتها. أغلقتَ عينيك وقد استبدت بك الشهوة، فرحتَ تداعب قضيبك الذي انتصب بجنون. طالت فترة صمتك فنادتك بصوت منكسر :

مكتبة الفكر الجديد

" آآآه.. تعال.. أرجوك.. استمر... "

خلعتَ آخر ما تبقى من تحفظك وسألتها :

" هل أنت الآن عارية ؟ "

فجاوبتك مباشرة :

" تعال.. عرّيني.. عرّيني أنت.. خذني إليك.. ضمني بقوة.. "

توقفتَ قليلاً لتعيد الشريط إلى اللقطة الأخيرة ورحت تضيف :

" أقبّل عينيك.. أقبّل عنقك وشفتيك.. أمص لسانك.. أعرّي صدرك وأعصر نهديك.. أمص حلمتيك.. "

صرختْ متأوهةً فواصلتَ :

" أنام عليك.. أضمك بقوة.. أعصر صدرك بصدري.. "

" أكثر.. أقوى.. "

رددتْ فازداد هياجك فقلتَ :

" لم أعد أحتمل أكثر.. أريد أن أدخل فيك.. أريد أن أضاجعك. "

" يلاّ أرجوك.. أدخل فيّ.. غرقتُ ببللي.. أدخلني بقوة.. "

قالت ثم استدركت :

" لا.. لا.. أريد أمصّه أولاً. "

" خذيه.. "

" أمصّه.. أضمه بيدي.. أمرره بين نهديّ.. أعصره.. أشرب ماءه.. "

صمتُ مستمتعاً بكلامها، حتى قالت :

مكتبة الفكر الجديد

" فوّته.. أرجوك.. فوّته كله فيّ... نكني بعنف.. اضربني.. "

ارتفع صراخها، وقد تخيلتها وهي تقبض فرجها ناشبةً أظفارها فيه، فرحتَ تردد بحذرٍ :

" امتلكك.. أنت ملكي.. "

فجاء صوتها جريئاً :

" كلي لك.. أنا ملكك.. أنت سيدي.. أنا عبدتك.. "

ثم ارتفعت منها صرخة قوية، وأغلقتِ التلفون.

مرّ قطار سريعاً قادماً من جهة المانيا، فانتبهتَ بأنك مازلت واقفاً عند نهاية رصيف المحطة. عدتَ بخطواتٍ بطيئة، مركّزاً نظرك على وجه الجالسة أمامك والتي كانت مشغولة في البحث عن شيء في حقيبتها اليدوية، وما أن اقتربتَ منها حتى تطلعتَ إلى ساعتك بحركة استعراضية، ثم حثثتَ خطاك كأنك حسمتَ أمرك في مغادرة المحطة.

" لا.. من المستحيل أن تكون هذا الجالسة الخجولة.. هي نفسها إسراء الجريئة.. الشبقية.. المتلذذة بكلمات الإغراء.. مثل عاهرة ماهرة."

رددتَ مع نفسك وأنت تتجه نحو باب السلّم الهابط نحو صالة الانتظار. لم تبتعد عنها بضع خطوات حتى سمعتها تنادي باسمك، فعدتَ إليها مسرعاً وأنت تلعن غباءك بصوتٍ عالٍ. نشرتَ ذراعيك في الهواء لكي تحتضنها، إلا أنها مدّت يدها مصافحة وهي تبتعد قليلاً في مواجهتك. أخذت يدها. قربتها من شفتيك وطبعت على راحتها قبلة وأنت تنظر في عينيها، فأخفضت نظرها إلى الأرض. أحطت كتفها بذراعك فتملصت منك بغنجٍ، وقالت مؤنبة :

مكتبة الفكر الجديد

" نحن لسنا دنماركيين. "

" ولكننا عشّاق. "

قلتَ وأنت تنظر إليها فهزّتْ رأسها، وارتسمتْ على شفتيها ابتسامة لا تخلو من خبث ودلال. سرتما ببطء نحو الباب الخارجي للمحطة، وقبل أن تغادراها سألتها بعتاب :

" ولماذا تركتني أنتظر متردداً ؟ "

فأجابت، كأنها قد هيأت نفسها للسؤال :

" كي أستمتع وأنا أراك قلقاً.. حائراً. "

وقبل أن ترد على كلامها، أضافت :

" وكنتُ أريد اختبار قلبك.. فقلب العاشق دليله. "

أدركتَ أنك أمام امرأة تجيد المراوغة والتحايل، فقلتَ :

" ولكن اليوم هو الأول من نيسان.. وقد خطرت في ذهني أني أعيش في كذبة. "

استدركتَ بعد أن رأيت شيئاً من الامتعاض قد ارتسم على وجه إسراء :

" .. أو بالأحرى لم أكن واثقاً من أن القدر يصحح أخطاءه السابقة.. وينعم عليّ ببراقٍ يُسري بي إلى سماءٍ مليئة بكل هذي النجوم. "

تطلعتْ إليك وقد توامضت في عينيها دمعتان وارتعشت شفتيها، فأدركتَ بأنك أجدتَ الترويض، وأنها ستأتي الليلة لذراعيك طيعة. مدت

مكتبة الفكر الجديد

يدها وأخذت كفكّ، فلمست بللاً قد غطى راحة كفّها. اعتصرتها برفّة وأنت تتطلع في عينيها اللتين زاد الكحل من اتساعهما. حينما خرجتما إلى الشارع، خلّصت كفها من كفّك، ومشت باتزانٍ تاركةً بينها وبينك مسافةً توهم المترصد بأنكما موجتان منفصلتان في بحر الشارع المزدحم بالعابرين. تأخرتَ عنها قليلاً، متفحصاً جسدها على الرغم من الجبّة الفضفاضة التي ترتديها، فلاحت أمامك قامة رشيقة وعجيزة متكورة، مثيرة. مددت يدك ملامساً ردفها، فجفلت وراحت تنظر إليك بغضب ولوم، ولكي تبرر فعلك، قلتَ مذكّراً إياها بالعبارات التي كنتما ترددانها بالتلفون أو على الماسنجر، فقالت :

" لا .. ليس الآن.. انتظر حتى تكون ملكك على سنّة الله ورسوله. "

ساد صمت بينكما وكل منكما يفكر بنوعية العلاقة ومستقبلها، بينما كنت تنتظر اللحظة التي تصلان فيها إلى البيت، لكي تثبت لها أنّ المبادئ ستسقط مع أول ملامسة، وأن الشيطان الذي سيكون ثالثكما أقوى من الله وسنّة رسوله.

بعد وجبة غداء عراقية تتكون من الباميا والرز والنعناع وكأسين كبيرين من اللبن، تمددتَ على الصوفا، وأنت تشير بخبثٍ إلى المكان التي كانت تضطجع عليه في مغامراتكما الإفتراضية. بينما هي تحاول التهرب من تلميحاتك بحركة مستمرة ما بين المطبخ والصالة وغرفة طفلها الذي انشغلَ في تركيب اللعبة التي اشتريتها له أثناء مروركما في شارع المشي الذي يتوسط مدينة هيدرسلو. ولكي تؤكد لكَ بأن انشغالها عنك سيطول، طلبتْ منك أن تذهب إلى غرفة نومها وتستلقي هناك. وجدتها فكرة تبشر بنضوج الثمرة واقتراب موعد القطاف مع اقتحام أول الأماكن الخاصة. استلقيت على السرير العريض بشرشفه الوردي

مكتبة الفكر الجديد

الحرير والوسائد اللينة. كانت غرفة النوم واسعة وتضوع برائحة الأنوثة. الستائر وردية والإضاءة خافتةٌ. في الزاوية كومدينو من الخشب الأسود البراق وعليه صُفت أدوات التجميل باهتمام واضح. وعلى الجانب الآخر خزانة كبيرة، تُرك أحد أبوابها مفتوحاً فظهرت ملابس نوم شفافة معلّقة بشكل مثير للشهوة. قبالة السرير مرآة كبيرة أخذت نصف مساحة الجدار. فتذكرتَ رغبتها التي كانت تعبر عنها في أحاديثكما في المضاجعة أمام المرآة لكي تراه كيف يخرج ويدخل فيها. خطرتْ في ذهنك فكرة أثارها تهيجك، وهي أن تتعرى تماماً وتدخل السرير، حتى إذا ما دخلت إسراء ورأتك فإنها سترمي نفسها في حضنك بعهرها الإفتراضي. اغتنمتَ فرصة غيابها وانشغالها مع طفلها، فاتصلت بسهاد لتخبرها بأنك في مدينة فلنسبورغ الألمانية، فطلبتْ منك ألاّ تنسى شراء ما أوصتك به من حلويات وشكولاتة وخلاّط فواكه، فأكدتَ لها بأنك ستفعل.

دخلت إسراء الغرفة حاملة كأسين من العصير. شعرتَ بحفيف ثوبها وخطواتها الحذرة. افتعلت النوم وقد أزحت الغطاء قليلاً كاشفاً عن صدرك العاري. توقفتْ عند السرير وهي تتطلع إليك، وقبل أن تخرج من الغرفة، تحركتَ فاتحاً عينيك ببطء، فعادتْ. وضعت الصينية على الخزانة الصغيرة، وجلست على حافة السرير بعد أن أعادتْ الغطاء على صدرك. انقلبتَ باتجاهها بحركة مفضوحة فأبعدتْ عجيزتها قليلاً. قالت :

" اسمع يا سامي.. وأرجوك أن تفهمني ! "

جلستَ على السرير مستنداً إلى المخدّة تاركاً الغطاء يتهاوى ببطء عن صدرك. ورحتَ تصغي إليها باهتمام، مسترقاً النظر في المرآة إلى

مكتبة الفكر الجديد

عجيزتها وقد أبرزها الثوب الضيق حتى لاح شقّ الدراقة بوضوح، بينما هي كانت تتطلع إلى السقف متحاشيةً النظر إلى صدرك العاري. كررتْ عبارتها برجاء، وأضافتْ :

" لا تتصورني رخيصة.. تعطي نفسها بسهولة.. ولا تتصور بأن حاجتي إلى رجلٍ تدفعني إلى ارتكاب الفاحشة... ولكني أحببتك.. أحببتك بصدق. "

صمتتْ، فأخذتَ كفيها واعتصرتهما بين كفيك وأنت تردد :

" وأنا أحببتك.. ولكن لماذا تعتبرين ممارسة الحب فاحشة ؟ "

" أنا مسلمة.. ملتزمة.. وأخاف الله. "

شعرتَ بأن شيئاً قد تغيّر بعد أن رأتك، ربما لم تعجبها، أو ربما هي صادقة بما تقول، فسألتها بعد أن عبّرتَ عن اقتناعك بما تقول واحترامك لالتزامها :

" وماذا تقترحين شكل العلاقة بيننا. "

" نتزوج. "

قالت وهي تتطلع إليك بثقة، فقلتَ :

" ولكن كما تعرفين أنا رجلٌ متزوج وابنتي لم تزل طفلة. "

" وأين المشكلة ؟ "

قالت، ثم أضافت :

أنا إنسانة مسلمة.. وأنت رجل مسلم.. ومن حقك أن تتزوج مثنى وثلاثاً ورباعاً. "

مكتبة الفكر الجديد

وقبل أن تسمع ردك، وضعتْ طرف سبابتها على أنفك برقة. وهي تردد :

" لا .. مثنى فقط.. فأنا لا أريد أن تنزل علي ضرّة أخرى... لا أتحمل ذلك.. "

هززتَ رأسك موافقاً على طلبها دونما تردد، خاصة وقد سال لعاب شهوتك بعد أن رأيتَ جسدها المثير. مددت يدك على خصرها فلم تمانع، فقلتَ لكي تختبر صدق إصرارها :

" هل تقصدين أن نتزوج زواج متعة ؟ "

هبّتْ واقفةً وهي تتطلع إليك بغضب. قالت وأرنبة أنفها ترتجف :

" لا .. أنا امرأة سنيّة.. ولا أؤمن بما تؤمنون أنتم به. "

قلتَ لكي تبرر ما أثار غضبها، ومجاراة لإيمانها :

" ولكن يا حبيبتي.. أنت تعرفين أن المسافة بين مدينتي فايله وهيذرسلو ليست بالقصيرة .. وتكاليف السفر عالية.. ولا يمكن أن أكون عادلاً بينكما.. "

انفرجت أساريرها، وعادت إلى جلستها على حافة السرير. قالت :

" أنا أتفهمك.. ولا أطلب أكثر من أسبوع في الشهر. "

" طيّب. "

قلتَ بحزمٍ، مؤكداً لها بأنها ستكون السيدة الأولى. انحنت عليك حتى لامسَ نهداها صدرك وطبعتْ قبلة على خدك. افتعلتَ الرزانة وعدم التسرع، فرفعتَ رأسها، وسألتها :

مكتبة الفكر الجديد

" متى تحبين أن نعقد القران ؟ "

" غداً. "

شعرتَ بشيء من الخيبة، فسألتها بدون وعي منك :

" وكيف نقضي الليلة ؟ "

وقبل أن تجيب، قلت مازحاً :

" هل سنمارس بالتلفون أو على الماسنجر ؟ "

لم تضحك إسراء، وقالت بجد :

" سنمارس دون إيلاج. "

وقبل أن تسخر من كلامها، أضافتْ بجد :

" كيلا يُحسب علينا زنا .. أما الباقي فالله غفور رحيم. "

" تقصدين ألاّ يدخل المرود في المكحلة. "

قلتَ مازحاً، وأنت تشكّل من كفك اليسرى دائرة. تخترقها سبّابة يمناك. ارتعش جسدها، عاضةً شفتها السفلى، ثم قالت وهي تتلوى :

" وهناك طرق أخرى. "

أثارك كلامها والشهوة التي ارتسمت على وجهها وهي تردد :

" أحبك.. أحبك يا ... سافل. "

مددتَ يدكَ حول رقبتها. قرّبت وجهها منك والتهمت شفتيها بقبلة عنيفة، بينما يدك الأخرى تسللت إلى تحت ثوبها فاندلق نهدها عارياً في قبضتك. أزاحت الغطاء عن جسدك فوجدتْه منتصباً. تشبثتْ

مكتبة الفكر الجديد

به بيدها، فأفلتّ رقبتها من خناقك بإشارة واضحة، فراحت شفتاها تزحفان ببطء على جسدك، نزولاً إليه.

على الرغم من حذرك الشديد وعدم ثقتك بالنساء حتى لو أعطينَ عهداً، فقد حدث ما كنتَ تخشاه، إذ أن إسراء استغلت ثقتك وأوقفت تعاطي حبوب منع الحمل. لم تخبرك بالحمل إلا بعد مرور أكثر من ثلاثة أشهر وحين طلبتَ منها إسقاط الجنين، رفضتْ معلنة عن استعدادها للتخلي عنك إذا أجبرتها على الاختيار. رضختَ لرغبتها على مضض، فصارت تطلب منك البقاء معها طويلاً، مذكّرةً إياك بأنّ تعدل بين الزوجتين " على الأقل في فترة الحمل ".

كثرت سفراتك إلى مدينة هيذرسلو، وفي كل مرة تختلق عذراً لإقناع سهاد، حتى تضخم قاموس كذبك، بل أصبحتَ مبدعاً باختلاق الكذب والمبررات في اللحظات الحرجة. زاد قلقك ووجومك، ولم تستطع تبديد الشك الذي طفح في نفس سهاد، خاصة بعد إصابة إسراء بمرض (سكري الحمل)، وكما أخبرك الطبيب بأن احتمالاً ليس قليلاً بأن ينتقل إلى الطفل، فكان عليك مرافقتها لمستشفى فردريسيا مرةً كل أسبوع لإجراء الفحوصات.

رنّ تلفونك في ساعة متأخرة من الليل بينما كنتَ وسهاد تتابعان فيلماً على إحدى الفضائيات العربية. جاء صوت امرأة دنماركية يطلب منك الحضور إلى مستشفى فردريسيا كي تكون أثناء الولادة برفقة زوجتك التي تم نقلها بسيارة الإسعاف من مدينة هيذرسلو. أدركت سهاد ما أخفيته عنها خلال أكثر من سنة، لكنها لم تقل شيئاً ولم تسألك عن المتصل. ارتديتَ ملابسك على عجل واتصلتَ بمكتب التاكسي. قبل أن تغادر البيت، قلتَ لسهاد :

مكتبة الفكر الجديد

" حينما أعود سأخبرك بكل شيء. "

هزّت رأسها وهي تتطلع إليك بغضب، وقالت بطريقة يمتزج فيها الحزن والسخرية :

" لا داعي لذلك.. فأنا أعرف كل شيء. "

حينما وصلتَ المستشفى كانت إسراء قد أدخلت إلى صالة التوليد. وقفتَ إلى جانب السرير ماسكاً كفها، وبين نوبة طلق وأخرى كنت تذهب إلى غرفة الممرضة لتسألها عن الوقت المتبقي، حتى نهرتك بصوت غاضب مهمهمةً بكلامٍ لم تفهمه.

ثلاث ساعات مرت وأنت تتحرك بين صالة التوليد والممر، متبلدّ الإحساس، لا تعرف إنْ كنتَ فرحاً بولادة ابنتك الثانية أم غاضباً، أم أنك حائر في ترتيب حياتك القادمة، خاصة بعد أن افتضح أمرك ولم يعد قاموس كذبك نافعاً للتبرير.

حينما سمعتَ الصرخة الأولى، كنتَ جالساً على مصطبة بجانب باب صالة التوليد، ودون وعي منك هرعتَ داخلاً، فرأيت المولودة بيد القابلة. اقتربتَ منها فشعرتَ بأن جسدك يرتعش بإحساس لم تألفه من قبل، إحساس يختلف كثيراً عن إحساسك عند ولادة روزا قبل عشر سنوات. أسرعتَ في الخروج من الصالة، راكضاً في ممرات المستشفى دونما وجهة محددة، حتى وجدت نفسك عند باب المستشفى الخارجي. كان الثلج يهطل بغزارة وجسدك ينضح عرقاً. وقفتَ محتمياً تحت مظلّة إحدى النوافذ وأجهشت في البكاء.

عدتَ إلى البيت في اليوم التالي. لمحتَ سهاد واقفة عند نافذة المطبخ وتطلّ على موقف الباص المقابل لشقتكما، وحينما رأتك انسحبتْ.

مكتبة الفكر الجديد

" لماذا ؟ "

قالتْ وهي تحاول أن تقف أمامك بصلابة، وعيناها تتقادحان كجمرتين متقدتين لم يستطع الدمع إطفاءهما . قبل أن تعترف لها بالحكاية، أوقفتكَ بإشارة من يدها، وقالت :

" لا أسألك لماذا خنتني.. وإنما أسألك لماذا كذبتَ علي كلّ هذه المدّة الطويلة. "

لم تجد ما تجيب به سوى الرجاء بتأجيل الحديث في هذا الموضوع، وحينما أجابتك :

" أي موضوع ؟.. لم يعد بيننا ما نحكي به. "

حاولتَ أن تستعيد كبرياءك المهزومة فقلت :

" أنت حرّة.. ولك القرار.. وأنا سأقبل بأيّ اختيار. "

تطلعتْ إليك بصمتٍ ووجنتاها ترتعشان بغضب، ثم قالت بصوت واطئ :

" أحبك. "

تركت المطبخ بخطوات مرتبكة، وقبل أن تدخل غرفة النوم، التفتتْ إليك، وسألتك :

" هل تسمح لي بسؤال سخيف ؟ "

هززتَ رأسك موافقاً، فقالت سهاد :

" هل كانت عشيقتك باكراً ؟ "

" ليست عشيقتي.. هي زوجتي. "

مكتبة الفكر الجديد

قلتَ ببلاهة، فأطلقت سهاد ضحكةً مفتعلة، وسألتك بسخرية :

" منذ متى صرتَ تؤمن بالشريعة.. وبتعدد الزوجات ؟ "

صمتُّ قليلاً، ولكي توقف سهاد عن تماديها في السخرية منك، قلتَ بهجوم عدواني :

" حينما أدركتُ أن الشيوعية تعني الخديعة. "

أغمضتْ سهاد عينيها كأنها تحاول إبعاد صورتك عن نظرها، مستندة إلى الجدار. احترقت المسافة بينكما. فصار كل منكما يحاول أن يبعد النار عنه، مستنفراً قدرته على نبش الماضي لشحذ سلاح حجته، فقالت :

" ولكنكَ لم تجبني.. هل كانت زوجتك باكراً ؟ "

قلتَ :

" لا.. كانت مطلقة. "

تطلعتْ إليك، تاركةً خيطين من الدمع ينسابان على خديها. وقالت:

" مع الأسف.. قدركَ أن تتزوج نساءً مستخدمات قبلك. "

مكثتْ إسراء خمسة أيام في مستشفى فردريسيا، وغادرت بعد أن تم التأكد من سلامة الوليدة من مرض السكري. قضيتَ أسبوعاً معهما في هيدرسلو. اعترضت إسراء بإصرارٍ على الاسم الذي اقترحته للوليدة، وحينما سألتها :

" ألم نكن متفقين على تسميتها بابل ؟ "

مكتبة الفكر الجديد

فردّت بطريقة فظّة، كأنها تبحث عن سبب للعراك :

" غيّرتُ رأيي.. وأنا حرّة. "

وقبل أن تنطق بكلمة، أضافت :

" سيكون اسمها سُورة. "

" ولماذا هذا الاسم الغريب ؟ "

تطلعتْ إليك بتحدٍ، وقالت :

" أنا إسراء وهي ابنتي.. وسيكون اسمها سورة. "

هززتَ رأسك كعلامةٍ لإدراك ما يخفي كلامها من مغزى، وغادرتَ منكسراً.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

مكتبة الفكر الجديد

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عصراً ببضع دقائق، وحلّ ظلام شفيف يضيئه بياض الثلج، فبدت على جانبي السيارة قامات الأشجار المغطاة بالثلج، وأضواء القرى البعيدة. الطريق مغطى بطبقة من الصقيع الذائب، مما جعل السائق يتشبث بمقود السيارة بحذرٍ متذمراً، ومطلقاً شتائمه كلما واجهته سيارة قادمة بإنارة حادة.

لاحتْ أولى معالم مدينة فايله، فتسارعتْ نبضات قلبي وشعرتُ بأني على وشك الإغماء. لاح الجسر الكبير بأعمدة إنارته الكثيرة، الجسر الذي كنتُ أرى قدري مكتوباً على إحدى دعّاماته، وكاد حدسي يتحقق لولا سيارة الشرطة التي كانت أسرع من القدر لتغيّر شكلَ موتي.

منذ وصولي وسهاد لهذه المدينة قبل اثنتين وعشرين سنة، وقفتُ أمام الجسر متسمراً وأنا أقيس ارتفاعه بحركة رأسي البطيئة من سطح الماء وحتى امتداده على صفحة السماء، وقد بدت الشاحنات التي تمر عليه كأنها دمى صغيرة، مرتعباً وأنا أرى عينيّ الموت تتقادحان مصوّبتين إلى داخلي فأرتعش برغبة غامضة.

لم يفارقني هاجس الموت منذ طفولتي خاصة عندما كنت أتطلع إلى نهر دجلة الذي كان يأخذ كل صيف عدداً من أجساد الصبية قرابين لزهوه، فارتبط عندي بالغرق، أو أعبر السدة العملاقة التي تقع قريبة من بيتنا، فأقف في منتصفها وأتطلع إلى الأسماك المندفعه بقوة الماء المحاصر خارج البوابات المغلقة، فكان من بينها ما يسقط على الحواجز الكونكريتية، فيبقى يتقلب مختنقاً في الهواء الطلق حتى تخمد أنفاسه. كانت ترعبني لعبة الموت هذي، وحينما كبرتُ، كبر الموت كذلك، فلم يعد يستعرض ألعابه في الأماكن الخاصة أو في الكرنفالات الحزينة التي كانت تقام في شهر محرمٍ من كل عام، بل أصبح يحتلّ دقائق الوقت

مكتبة الفكر الجديد

وبأشكال مختلفة، فالتقيتُ به مراراً وجهاً لوجه، في السجن، في جبهات الحرب، في الساحات والملاعب الرياضية حيث تقام حفلات الإعدامات بحق الفارّين من الحرب، في الأناشيد الوطنية، وحتى في عينيّ مذيعة الأخبار الجميلتين، ألا اني لم أرَ الموت متجسداً أمامي بوضوح وقح كما كنت أراه وأنا أنظر إلى جسر فايله الكبير.

لم أكن خائفاً من الجسر فحسب، بل كنت أخاف من شيء مُبهم يستيقظ في نفسي، فأشعر بأن قدميّ تخطوان نحوه دون إرادة مني. رغبة تمدّ يدها نحوي، تسحبني، فأنقاد إلى غوايتها طائعاً، حتى إذا ما تيقنتْ من متانة حبل قيادها واستسلامي لها، تؤجل عزمها إلى مناسبة أخرى...

لم أجرؤ على المرور على الجسر إلا مرةً واحدة في صحبة صديق لي بسيارته عبوراً إلى الجهة الشرقية من المدينة، وحينما شاهد ارتباكي، تعللتُ بأني أعاني من فوبيا الأماكن المرتفعة، حينها ضغط على دواسة البنزين كأنه يطوي مسافة الجسر فأدركتُ بأن صاحبي يحمل الشعور نفسه ولكن لم يجاهر به.

كنتُ واثقاً من اني سأقف يوماً عليه، مطلاً على البحر وأنا أقيس المسافة ما بين الحياة والموت، وأتخيلُ ما سيخطر في ذهني لحظة ارتطام جسدي بسطح الماء أو في اللحظات الأخيرة وأنا أغوص نحو الأعماق المظلمة. حتى حينما علمتُ بأن اللاجئ العراقي محمد أرواح قد فعلها قبلي شعرتُ بالغيرة منه.

فاجأتني سهاد مرةً ونحن جالسان على ساحل البحر، نتطلع إلى الأشرعة الملونة وزوارق السباق وزلاّجات الماء، يستخدمها شبانٌ وشابات

مكتبة الفكر الجديد

بمرحٍ لا يقلّ عن مرح العراة الذين افترشوا رمال الساحلِ في يومٍ صيفي نادر :

" ألم تلاحظ يا سامي.. أنك في كل مرةٍ تتطلع إلى الجسر تخطر في ذهنك فكرة الانتحار ؟ "

لا ادري كيف استطاعت سهاد أن تكشفَ سرّي الذي كنت حذراً جداً من كشفه. ارتبكتُ وأنا أحاول الإجابة عن سؤالها، فهززتُ رأسي متفقاً معها، وأطلقتُ ضحكةً مفتعلة. رحتُ أطمئنها بأني لا أنوي الانتحار، ولكني أفكر بالانتحار كفكرة وجودية، محاولاً أن أفهم الدافع الذي يجعل الإنسان يُنهي حياته بهذه الطريقة، وأية فكرة تخطر في ذهن المنتحر في اللحظات الأخيرة قبل تنفيذ ما قد عزم عليه، وهل الفكرة وليدة لحظة لا شعورية غامضة، أو أنها تولد وتنمو شيئاً فشيئاً قبل لحظة الحسم.

لم تقتنع سهاد بإجابتي، وكانت تحاول تغيير الموضوع كلما جرى الحديث عن الجسر والانتحار، وتجد المبررات للامتناع عن الذهاب إلى ساحل البحر، حتى اقترحتْ علي فكرة الانتقال من هذه المدينة الصغيرة إلى العاصمة :

" هناك نجد عوائل عراقية كثيرة.. وتقام فعاليات ثقافية واجتماعية.. على الأقل لنخرج من عزلتنا الخانقة في هذا المدينة المهجورة.. التي تصفر الرياح فيها .. ويهمد ناسها كالأموات عند الساعة الخامسة عصراً. "

كانت سهاد على حق في ما قالته، فحتى بعد مرور سنتين من وجودنا في هذه المدينة لم نستطع التآلف مع اللاجئين العراقيين الذين كان أغلبهم من الرجال، ولم نستطع إقامة أية علاقة مع المجتمع

مكتبة الفكر الجديد

الدنماركي. تحمستُ للفكرة، وبدأنا التخطيط للانتقال إلى كوبنهاكن، غير أن حدوث الحمل كان سبباً في تأجيل الأمر، ثم توالت أسباب التأجيل حتى ألغيت الفكرة.

وضع الشرطي الجالس جنبي كفّه على ركبتي، ضاغطاً عليها. التفتّ نحوه، فقال :

" وصلنا فايله. "

هززت رأسي دون أن انطق بشيء، فسألني عن عدد السنوات التي قضيتها في المدينة، وعن سبب اختياري لها، وعن رأيي فيها وفي ناسها، فكنتُ أجيب عن أسئلته باقتضاب وبلا رغبةٍ في الحديث. قرّب رأسه مني هامساً في إذني :

" هل ترغب في أن ترى عائلتك ؟ "

وقبل أن أجيبه، أضاف :

" بإمكاننا أن نقف بضع دقائق.. لتلقي عليهم السلام. "

" لا. "

أجبت بإصرار، ثم أضفت مبرراً امتناعي :

" لا أريد أن أسبب أكثر مما سببت لهم من آلام. "

رفع الشرطي كتفيه بلامبالاة دون أن ينطق بكلمة، وراح يتطلع إلى الطريق الأمامي.

◆◆◆◆◆◆◆◆◆

مكتبة الفكر الجديد

.....

في البدء.. كانت ولادة روزا حدثاً، غيّر الكثير مما كان يشغل تفكيرك، وطوى صفحة الماضي وألقى بهواجسك بعيداً. أثث فراغ عزلتكَ بإنسانية كادت الظروف تمسخها لتحيلك وإياها إلى ركام من ماضٍ تتبادل فيه الضحية وجلادها الأدوار. شيء واحد كان ينغّص عليك فرحك وزهوك بأبوّتك، شيء بدا كأنه قابل للتجاوز إلا أنه تحول مع مرور الوقت إلى معضلة، أو كما يقال القشة التي قصمت ظهر البعير فعلى الرغم من شعورك بحب كبير نحو سهاد، حب تضاءل أمامه حب السنوات الماضية، وكانت سهاد تبادلك الشعور نفسه، بل كانت سعادتها تطفح في عينيها وهي تراك قد تجاوزت الحاجز الذي كان يحول بينك وبين سعادة الحب المكتمل، وتفخر بك حينما تدرك أنك قد استللتَ الشوكة التي كانت عالقة في روحك وزال أثرها، إلا أن أمراً قد حدث بعد ولادة روزا أربك حياتك، فسهاد التي كشفت أمامك روحاً طافحة بحنان الأمومة وبمسؤولية الزوجة الحريصة على بيتها. بدأت تفقد شيئاً فشيئاً من أنوثتها، وكأن مهمتها أو مهمتك قد انتهت عند حصولها على الطفل الذي كانت تنتظر مجيئه. كنتَ تجد في انشغالها عنك برضاعة روزا عذراً لها يجعلك تؤجل رغبتك أو تشبعها بطريقتك الخاصة، لكن الأمر استمر، حتى أصبح البوح به يحتاج إلى تحايلٍ ومراوغات تذكّرك بالأيام الأولى لعلاقتكما حينما كنتَ ترتبك وتزداد نبضات قلبك كلما تقدمت خطوةً للدخول في دائرة البوح بالرغبة.

تهدّل نهداها، وبرز كرشها قليلاً فكانت ترفعه بيدها حينما تهمّ بالنهوض بحركة رعناء ترمي على نار شهوتك ماء بارداً، تطفئها فترتدّ

مكتبة الفكر الجديد

خائباً وينكمش قضيبك مثل فأرة خائفة، فتستغل ذهابها للنوم لتوقظه بخيالاتك أو بمشاهدة أفلام البورنو. برزت أعصاب زرق على ساقيها فكنت تغمض عينيك كلما انحسر الثوب عنهما، حتى حينما كانت تستنفد أعذاراها في الهروب منك وتحصل على ممارسة سريعة، كنتَ تشعر بأنك تضاجع قالبَ ثلجٍ. تغمض عينيها أو تدير رأسها إلى الحائط منتظرة لحظة انتهائك كي تقفز سريعاً نحو الحمام. تقضي وقتاً طويلاً هناك لتخرج وقد بللت وجهها وشعرها بالماء، كأنها توقظ نفسها من كابوس.

سألتها مرةً بعد أن عجزتَ عن استدراجها للفراش وإثارة شهوتها:

" ألا تفكرين بانجاب أخٍ أو أختٍ لروزا ؟ "

" ليس الآن. "

قالت بإصرارٍ ونهضتْ، وحينما حاصرتها بإلحاحك قالت:

" لماذا ننجب طفلاً آخر.. وفي أي وطنٍ سيكبر ؟ "

" ولكن روزا بحاجة إلى أخٍ أو أخت. "

قلتَ، فتطلعتْ إليك بنظراتٍ باردة، وقالت بسخرية:

" بيل كلنتون.. رئيس أمريكا عنده بنت واحدة. "

آخر خيط بينكما انقطع حينما كنتما في سفرة إلى هنغاريا. بعد أسبوع قضيتماه في بودابست، سافرتما إلى بحيرة البلتون، هناك استأجرتما بيتاً صغيراً يبعد عن ساحل البحيرة ببضعة أمتار. ارتدت سهاد ولأول مرة في حياتها المايوه بعد تشجيع منك، وبعد أن رأت أغلب السواح يمشون على الساحل ويدخلون الأسواق والكافتريات وهم يرتدون

مكتبة الفكر الجديد

ملابس السباحة، بل من بين النساء من أطلقت نهديها حرّين واكتفت بلباس خيطي لا يستر إلا المساحة الصغيرة. كانت روزا قد أكملت السابعة من عمرها. اشتريتما لها بكيني أصفرَ وكرة مطاطية كبيرة فراحت تنطّ فرحةً، وقد أثار فرحها البهجة في نفسيكما. حملتها على كتفيك ودخلت البحيرة. رحت ترميها عالياً لتسقط على الماء فتحرك يديها وساقيها بعفوية بينما سهاد تصرخ وتتوسل بك أن تكفّ عن اللعب معها، ولكن حينما رأت ابتهاج روزا وهي تضرب الماء بكفيها الصغيرتين وتدعوها للمشاركة في اللعبة، تخلّتْ عن ترددها ونزلت إلى الماء بخطوات حذرة. مسكتَ ذراعها ساحباً إياها إلى مسافة بضعة أمتار في عمق البحيرة حتى غطّى الماء خصرها. وقفتما تحت وهج شمس حارقة، تتراشقان بالماء، وأنت تتطلع إلى نهديها بشهوة مكبوتة.

في الليل بعد أن نامت روزا، جلستما في الحديقة الصغيرة للبيت، تصغيان إلى الصمت وتتطلعان إلى النجوم الكبيرة التي أضاءت في سماء صافية. فتحتَ قنينة كونياك صغيرة اشتريتها من محل قريب واقتسمتماها. كدت تطير من الفرح وأنت ترى التماع الشهوة في عيني سهاد واقترابها منك بإشارة واضحة، ولأول مرة بعد أكثر من خمس سنوات التحمَ جسداكما بشهوة عنيفة، وقد كان للكونياك مفعول باهر، إذ جعل سهاد تتخلى عن تحفظها في ترديد عباراتٍ كنتَ تتمنى سماعها منها. لكن.....

" فضّني صارم.. افتحني حبيبي... "

رددتْ سهاد وهي تمضّ راحة كفها بشهوة مجنونة، والعرق غطّى جبهتها وعنقها. توقفتَ عن الحركة وأنت تنظر إلى وجهها المحمرّ وارتعاشة أنفها. انتظرتَ لكي تتأكد مما قالته، فراحتْ تردد اسم صارم

مكتبة الفكر الجديد

عدة مرات، وبوضوح قطعَ خيط أمنيتك بأنّ ما سمعته كان صوتاً في داخلك. ارتختْ قبضتاك المتشبثتان بقوة بطرفي الفراش، وانزلق قضيبك خارجاً بانخذال، وببطء ارتميتَ إلى جنبها لاهثاً. فتحتْ عينيها. أدارتْ جسدها نحوك، وسألتك :

" ما بكَ حبيبي ؟ "

أزحتَ كفها عن صدرك العاري بامتعاض، وتطلعتَ في عينيها بغضب، فارتدّتْ إلى الخلف خائفة وهي تزيح خصلات شعرها عن وجهها المتعرق.

" مَنْ أنا ؟ "

سألتَها. ففتحت عينيها بدهشة من سؤالك، لكنها وبلحظات سريعة أدركت الخطأ الذي وقعتْ فيه. حاولتْ أن تموّه الأمر فتمتمتْ بكلمات غامضة، إلا أنك نهضتَ عن السرير ورحتَ ترتدي ملابسك. غادرتْ الغرفة، بينما غطّت سهاد نهديها بيدٍ وعينيها باليد الأخرى. مررتَ على روزا، كانت نائمة بوداعة ناشرة ذراعيها على عرض السرير وابتسامة بريئة مرتسمة على شفتيها. جلستَ قرب سريرها، وانفجرتَ بالبكاء.

روزا ومتابعة أمور مدرستها، تقسيم العمل البيتي، دفع الفواتير، مشاهدة التلفزيون، الأخبار القادمة من العراق، محاولات إرسال مبالغ مالية للأهل لتعينهم على تحمل آثار الحصار الاقتصادي، أخبار موت الأصدقاء والأقارب، النقاشات السياسية والتوقعات بما سيحدث في العراق في السنوات القادمة، مراجعاتكما للبلدية ووضعكما المالي، والمخدة التي بينكما مرةً تحتضنها سهاد ومرةً أنت، الغضب غير المبرر ولأسباب تافهة في أغلب الأحيان، التواطؤ غير المعلن والابتسامات المفتعلة... إلخ، كانت القواسم المشتركة بينكما، حتى دخل الكومبيوتر

مكتبة الفكر الجديد

فأصبح الفرد الرابع في الأسرة. صرتَ تقضي أغلب الوقت في تصفح المواقع الألكترونية والدردشة مع أصدقاء افتراضيين بينما سهاد تتابع المسلسلات التلفزيونية الرومانسية بغيبوبةٍ وانفعال يليهيها عمّا يدور في البيت، حتى تغفو على الصوفا، فتطفئ التلفزيون وتوقظها بحذرٍ. تنظر إليك كأنك شبح أو خيال عالق في أهدابها من بقايا حلمٍ ثم تنهض بتثاقل، وتذهب إلى غرفة النوم بعينين مغمضتين، عندها تدخل عالمك الافتراضي دون شعورٍ بذنب.

ما كنتَ بحاجة إلى المبالغة في التحفظ والسرية فقد كانت سهاد لا تعير لما يشغلك أي اهتمامٍ، ليس لأنها لا تعرف شيئاً عن تقنيات الكومبيوتر كما كنت تتوهم، أو عدم الفضول والتطفل كما كانت توهمك، فكلاكما كان يخفي عن نفسه حقيقة مشاعره، وهذا ما اكتشفته أخيراً حينما اكتشفتْ سهاد علاقتك بإسراء في الليلة التي تم فيها الاتصال بك من مستشفى فردريسيا لحضور ولادة ابنتك سورة. حينما كشفتَ بعد عودتك من المستشفى ما كنتَ تخبئه عن سهاد، هزت رأسها بسخرية وأخبرتك بأنها كانت تعرف كل شيء عن علاقتك السرية ومنذ بدئها، وحينما وضعتَ القرار بيدها وخيّرتها، لم تردّ عليك بسوى كلمة " أحبك "، وحتى عتابها اختصرته بكلمة " لماذا "، قالتها بحياديةٍ باردة. لم تطلب الطلاق منك كما كنتَ تتوقع، ولم تتقرب منك أكثر كما كنتَ تطمح في الأيام التالية بدافع الغيرة أو بدافع تأنيب الضمير بسبب إهمالها لك، وكأن الأمر لا يعنيها، وحينما أخبرتها بانفصالك عن إسراء لم تُظهر أية علامة تدلّ على فرحٍ، كما كنتَ تظن، لكنها أثقلتك بشعورٍ بالذنب، حينما قالت لك بأنها على استعداد أن تكون أمّاً لسورة وستعاملها مثلما تعامل روزا.

مكتبة الفكر الجديد

استرقتَ النظر إلى سهاد، وكانت تنظر في المرآة وتتلمس رقبتها. ضحكتَ في سرّكَ شامتاً، إذ حسبتها تتطلع إلى التجاعيد التي بدأت بالظهور، لكنّ هاجساً غريباً خطر في ذهنك. اقتربتَ منها حتى لامسَ جسدك عجيزتها ورحت تنظر في المرآة. سألتها عمّا يدور في ذهنها، تطلعتْ إليك في المرآة بخوف، وقالت :

" ألا ترى ورماً في رقبتي ؟ "

أدرتها نحوك بحركة من كتفيها، ورحت تتفحص رقبتها.

" لا أرى شيئاً. "

قلتَ، لتهوين الأمر، وحينما أصرّت على وجود الورم قلتَ مطمئناً إياها :

" ربما لدغة حشرة. "

" هه.. "

ردّتْ بسخرية، ثم أضافت :

" أية لدغة ؟.. الورم بدأ بالظهور منذ أكثر من ستة أشهر.. "

ولكي تؤكد على دقّة ذاكرتها، قالت :

" بعد سماعي خبر وفاة والدي بيومين. "

حاولتَ احتضانها موآسياً إلا أنها دفعتك بكفيها، وأزاحتك عن طريقها بنفور. دخلت المطبخ وهي تردد بامتعاض :

" وماذا يهمك أنتَ ؟.. وكيف لك أن تعرف ؟.. وأنت لا ترى أبعد من شاشة الكومبيوتر. "

مكتبة الفكر الجديد

اشتدّ قلق سهاد حتى كاد يُغمى عليها وهي ترى الاهتمام الكبير الذي أبداه الطبيب وهو يفحص رقبتها بصمتٍ متعجرف. رفع سماعة التلفون، وراح يتحدث مع المستشفى لأخذ موعدٍ سريع للفحص. زادَ الأمر غموضاً أنكما لم تفهما ما كان يدور من كلامٍ على الطرف الآخر، مكتفين بالحدس، وأنتما تتطلعان إلى تقاسيم وجه الطبيب وهي تتغير بدرجات مختلفة من التجهم والجد. بعد أن وضع سمّاعة التلفون، تطلع إلى وجهِ سهاد دون أن ينطق بشيء. طال صمته فبادرته سهاد بالسؤال:

" دكتور.. هل الأمر خطير ؟ "

هزّ رأسه بحركةٍ غامضةٍ، ثم قال بصوتٍ بارد :

" لا نستطيع الجزم قبل ظهور نتيجة تحليل الغدة الدرقية. "

أسبوع مرّ قبل موعد الفحص، كان خلاله الارتباك قد تغلغل في هواء البيت فكنتم تتنفسون رعباً بطعم الموت. تتصادمون في حركتكم كأن مساحة الشقّة قد تقلصت وضاق فضاؤها. صمت جنائزي يحيط بالمكان لكأن الهمسَ صواعقُ وصوتَ الزفير نفيرٌ، حتى جاء اليوم المحدد للفحص. كنتَ تقود سهاد من يدها كأنها تساق إلى المشنقة، وكانت الدقائق تمر ثقيلة، وكلّ منكما ساهٍ وتدور في رأسه الفكرة نفسها. حينما ودعتها عند باب غرفة التصوير نظرت إليك، بنظراتِ وداعٍ أبدي، فانقبض قلبك. أسرعتَ إلى الخارج وأنت تحاول التقاط الهواء كمشنوق تحررَ من الحبل قبل موته بثوان.

ألقتْ سهاد رأسها على كتفكَ وأنتما تجلسان على المصطبة في ممر المستشفى بانتظار نتيجة التصوير وإصدار الحكم. كانت تهذي بكلامٍ غامضٍ وعبارات مفككة، فهمتَ منها بأنها تعتذر عمّا بدرَ منها

مكتبة الفكر الجديد

من تقصير بحقك خلال حياتكما المشتركة، موصيةً إياك بروزا، وكأنها في لحظات الاحتضار الأخيرة.

فُتح الباب. أطلّ الطبيب المختص، وكان عجوزاً بقامة طويلة سدّت فضاء الباب، وشعر أشيب قصير، صُفّ بعناية واضحة. أشار إليكما للدخول. مسكتَ يد سهاد وساعدتها على النهوض، فسارتْ بحركة بطيئة، وصمتّ مدوّ تسمع أزيزه يخترق خلايا رأسك. أغلق الطبيب الباب خلفكما وأشار إليكما للجلوس على كرسيين مقابلين لمكتبه. راح يقلّب أوراقاً متناثرة على سطح المكتب، ويتطلع إلى شاشة الكومبيوتر. صفّق بكفيه وراح يحدق إلى سهاد بعينين غطّاهما جفنان مجعّدان تساقطتْ أهدابهما. لاحت على وجهه ابتسامة رقيقة، راحت تعرض شيئاً فشيئاً حتى تحولت إلى قهقهة مثل كركرة طفل. مدّ كفّيه اللتين برزت أعصابهما الزرق ولاح عليهما نمش كثير، ماسكاً بقبضتيه كفي سهاد المستسلمتين مثل حمامة مبللة. راح يمرر إبهاميه على كفي سهاد وهو يتطلع إلى وجهها بعينين ثابتتين. قال :

" مبروك... الأمر ليس خطيراً.. فالتصوير يظهر بأن الورم ليس خبيثاً. "

أجهشت سهاد في البكاء، بينما كنتَ أنتَ تحاول أن تبدو صلباً، فرحتَ تردد عبارات غير مترابطة، وكان الطبيب يهز رأسه موهماً إياك بأنه يفهم ما تقوله. نهض عن كرسيه وجاء بكأس ماء قدّمها إلى سهاد وهو يربت كتفها بحنو.

بعد أن هدأت سهاد، راح الطبيب يشرح لها بهدوء، وهو يشير إلى صورة الخلايا الملونة التي أخذت كلّ مساحة شاشة الكومبيوتر، عن طبيعة الورم ووظيفة الغدة الدرقية. سألته سهاد عمّا ينبغي فعله،

مكتبة الفكر الجديد

فنصحها بأن تحجز موعداً لإجراء عملية لاستئصال الغدة، وقبل أن يسمع ردّ سهاد، قال مطمئناً :

" العملية سهلة جداً... لا تستغرق أكثر من ثلاث ساعات.. ولا تترك مضاعفاتٍ سوى ارتباك في الهرمونات.. يمكن تجاوزه بحبوبٍ خاصة. "

انتظرَ أن يسمع ردّ سهاد، وهو ينقل نظراته بينها وبينك. تطلعتْ سهاد إليك، فأشرت إليها بأن الأمر عائد لها. استدرك الطبيب ما قاله فأضاف، موجهاً كلامه إلى سهاد وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة عريضة:

" لا تخافي.. لا تخافي.. فالعملية لن تتركَ أي أثرٍ يشوّه رقبتك..... الجميلة. "

هزّت سهاد رأسها موافقةً على إجراء العملية، وهي تردد بارتباك عبارة الشكر :

" tak... tak... tak skal De have... "

ارتدت سهاد شالاً حريرياً يغطي أثر الجرح على عنقها مثبتاً في سَمْتِ رأسها، إلا أنه مع الأيام زحفَ حتى غطى شعر الرأس كله. كنتَ تراقب تطور الأمر، وتضحك في سرّك، وكلما سألتها عمّا يدور في ذهنها، كانت تتهرب من الإجابة، حتى انفجرت أخيراً :

" نعم.. قررتُ ارتداء الحجاب. "

قالت بتحدٍ، فقلتَ بلا مبالاة :

" لا اعتراض عندي.. ولكن لماذا ؟ "

مكتبة الفكر الجديد

ارتسمت على شفتيها ابتسامة خجل، تقلصت شيئاً فشيئاً، حتى بدت تشنجاً واضحاً يحيط فمها، كأنها توشك على البكاء، وقالت :

" هكذا.. نذرتُ إنْ أنجاني الله من محنة المرض.. فأني سأتحجب."

توسعت حدقتا عينيك وأنت تتطلع إليها بدهشة، وقلتَ بطريقة لا تخلو من السخرية :

" ومنذ متى صرتِ تؤمنين بالنذر ؟ "

تطلعتْ إليك بغضب، ثم غادرت الصالة إلى المطبخ وهي تردد بصوت واطئ:

" مذ صرتَ تؤمن بحق الرجل في الزواج من مثنى وثلاث ورباع. "

فوجئتَ وأنت تدخل الغرفة الصغيرة التي كنتما قد أعددتماها للمولود القادم، إذ رأيتَ سهاد واقفة باتجاه القبلة، مجللةً بثياب بيضٍ غطّت جسدها كله فبدت كأنها ملاك، وقد شبكت ذراعيها على صدرها . أغلقتَ الباب بهدوء وانسحبتَ. منذ ذلك اليوم دخلَ حياتكما حديث لم يخطر في ذهنكما يوماً أن تدخل مفرداته قاموسكما، ولأول مرةٍ تتذكر بأن سهاد تنتمي إلى غير طائفتك.

روزا التي وقفت بذهول بين أمها التي بدأ سلوكها يتغيّر كل يوم وتحولَ كلامها إلى أوامر ونواهٍ، وبينك وقد اهتزت ثقتها بك بعد أن أخبرتها بأن لها أختاً تقيم مع أمها في مدينة هيذرسلو. هبّتْ واقفة، وراحت تصرخ بفرح. غير أنها توقفت فجأة. تطلعتْ إليك بعينين غاضبتين، وسألتك باستهجان وهي تضع كفيها على خصرها :

" يعني أنك خنتَ أمي !؟ "

مكتبة الفكر الجديد

حاولتَ أن توضح لها الأمر. إلا أنها راحت تصرخ بغضب، متهمة إياك وأمها بالتخلف والعجز عن الاندماج بالمجتمع الدنماركي الذي وفّر لكما حياةً كريمة، متعلقين بخيط وهمكما عن وطن بعيد. وطن متخلف يصدّر إلى العالم شعباً يحمل كل عقده وهمجيته، مشيرة إلى الجيل الثاني من اللاّجئين العراقيين في الدنمارك. وجدتْ في سكوتكما أمام حججها مبرراً للتمادي بنزقها، وللعزلة التي راحت تفرضها على نفسها، منتظرة التخرج من المدرسة الثانوية للانفلات من " هذا الجو الخانق"، والانتقال إلى الجامعة في كوبنهاكن. هذا ما حصلَ، لكنها وعلى الرغم من تفوقها في الدراسة الثانوية لم تحصل على مقعد في جامعة كوبنهاكن، وحصلت عليه في جامعة أودنسا التي تبعد ساعةً عن مدينة سكنكم. فرحتَ وأمها بالخبر، حيث يمكن لروزا الذهاب والعودة بالقطار يومياً، إلا أنها خيّبت ظنكما، حينما أعلنت أمامكما بإصرار بأنها ستقيم في الحي الجامعي، وحينما اعترضت أمها، وقفت أمامها بتحدٍ وقالت :

" أنا الآن على مشارف العشرين من عمري.. لم أعد طفلةً.. ولا أحد منكما يحق له التدخل في حياتي.. وألاّ... "

لم تكتف بهذا التهديد الواضح، بل غيّرت خطتها في الدراسة، فبعد أن كانت متحمسةً لدراسة تاريخ بلاد ما بين النهرين، تحولت بعد أن قضت نصف سنة في الدراسة، إلى فرع الميديا، وحينما سألتها عن سبب هذا التغيير المفاجئ، أجابتك بنفور :

" لم يكن مفاجئاً.. فلقد قررتُ هذا منذ أكثر من سنة. "

" لماذا ؟ "

سألتَ لتعرف سرّ هذا التغيير، فردّتْ :

مكتبة الفكر الجديد

" هل تذكر حينما كنا نشاهد معاً التلفزيون.. بعد أن قام الجنود الأمريكان بإسقاط تمثال صدام حسين.. منذ تلك اللحظة قررت إلغاء الفكرة. "

" لماذا ؟ "

سألتَ وأنت تركّز نظراتك لتعرف ما يدور في ذهن روزا، فأجابت بسخرية :

" ألم ترَ ماذا فعل بعدها شعبكَ من تخريب وسرقات للمتحف.. كيف لي أن أدرس تأريخ شعبٍ لا يحترم هو نفسه تأريخه. "

" هذا كلام ساذج... إنك لا تعرفين حقيقة ما جرى. "

قلتَ وأنت تحاول كسر غرورها في مخاطبتك، ثم أضفت :

" مثل هذه الحوادث يجب أن تكون لك حافزاً لدراسة التأريخ العراقي المهدد بالمحو.. وليس العكس. "

تطلعتْ إليك بغرور مراهقة، وقالت :

" أنا لست عراقية.. ولا أريد مثلكما أن أعيش في دوامة الماضي. "

هززتَ رأسك، دون أن تنطق، مكتفياً بحسرة زفرتها بصوت عالٍ، وارتسمت أمامك صورة وطن يتمزق، وشعبٍ عاجز عن تدارك الخلل، كما هو حالك الآن وأنت ترى تمزق عائلتك ولا تقوى على فعل شيء.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

مكتبة الفكر الجديد

اجتازت السيارة مدينة فايله ولم يبقَ أمامنا للوصول إلى مدينة هورسنس حيث يقع السجن الكبير سوى عشرين دقيقة. رحتُ أتطلع إلى الخارج وكأني استغل ما بقي لي من وقت لرؤية ما لن أستطيع رؤيته لاحقاً، غير أن الظلام كان يحيط بكل شيء، وأن السائق اختار الطريق السريع لسبب أجهله، فكأنه لم يعد يحتمل المزيد من رحلة أخذت الكثير من الوقت، وأنه يريد التخلص من عبء حمولته. أنا نفسي كنت متشوقاً للوصول فقد أتعبني السفر في الماضي.

" يا ماضي.. يا ماضي.. يا ابن الكحبة يا ماضي. "

رددتُ بصوتٍ عالٍ، فانتبه الشرطي الجالس جنبي، وسألني :

" ماذا قلت ؟ "

" أقرأ شعراً.. لشاعر عراقي انتحر في النمسا.. قبل خمس عشرة سنة. "

" وماذا يقول ؟ "

ترجمتُ المقطع إلى الدنماركية. أصغى الشرطي إليّ باهتمام، ثم انفجر ضاحكاً وهو يضرب كتفي بقبضته القوية ويهزّ كتفيه.

ساد صمتٌ لبضع دقائق ونحن نقترب من السجن. صمتٌ جنائزي، كأننا ذاهبون باتجاه المقبرة لدفن عزيز، قطعه الشرطي الجالس جنبي حينما اقترب مني، هامساً في أذني :

" لم يبقَ أمامنا سوى خمس دقائق. "

قال، وهو يرفع الكلبجة بين يديه، فأدركت قصده. مددت له يديّ فأوثقهما، وبقي ماسكاً كفّيّ، وهو يتطلع إلي بصمتٍ حزين :

مكتبة الفكر الجديد

" مازال هناك أمر يحيرني.. فوجهكَ لا يوحي بأنك قاتل. "

هززتُ له رأسي، مردداً عبارة الشكر على حسن ظنه بي، فعاد يسألني :

" ولكن.. قلْ لي أرجوك.. مَنْ قتلتَ ؟ ولماذا ؟ "

زفرتُ بحزنٍ وقلت :

" قتلتُ نفسي. "

" كيفَ ؟ "

سألني بحيرةٍ، وراح ينتظر جوابي.

ارتفع صراخ سهاد وروزا، وهما يتبادلان الشتائم. نهضتُ لأعرفَ سبب عراكهما. كانت روزا تحاول الهجوم على أمها لاسترجاع شيء قبضتْ عليه سهاد بإحكام. صرختُ بهما ليكفا عن العراك. تطلعت سهاد إلي، ومدّت يدها نحوي :

" تفضلْ.. خذْ.. انظرْ لابنتك. "

كان في قبضتها قرصٌ زجاجي يحوي على حبوب ملونة. عرفتُ طبيعتها، إلا أني سألتُ لكي أتأكد :

" ما هذا ؟ "

" حبوب منع الحمل. "

قالت سهاد فتطلعتُ إليها بنظرة خبثٍ، أدركتْ مغزاها. حاولتْ أن تستنفر كبرياءها فراحتْ توجّه غضبها إلى روزا التي وقفت بوجه أمها بصلابة لتؤكد لها بأنها تقيم علاقة مع زميل دنماركي، ساخرة من امرأةٍ

مكتبة الفكر الجديد

لم تستطع التخلص من عبودية تقاليدها البالية، مؤكدة بالاً " شيء يربطني بماضيكما وتقاليدكما ودينكما .. ". كنتُ أقف بينهما حائراً ولا أرى أيّاً منهما، كان عصابة سوداء غطّت عينيّ فلم أعد أرى شيئاً. شعرتُ بالاختناق فهرعتُ إلى الحمّام.

رأيتُني واقفاً أمام المرآة، أتطلع إلى وجهي وقد انشطر نصفين على أثر شرخ يمتد من أعلى المرآة إلى أسفلها. وفي منتصفها كان ثقب صغير لتهشيمٍ ناتجٍ عن طعنة أو اختراق رصاصة. لمستُ الثقب فانساب خيط دمٍ شطرَ المرآة، وسالَ ببطء متجهاً نحو فتحة المغسلة. حاولتُ مسحه فغطى المرآة كلها حتى تحولت إلى قطعة حمراء، وارتسم أمامي وجه يحمل بعض ملامحي. انتبهتُ إلى أن رأسي كان مقلوباً، وأن حزّاً عميقاً على رقبتي، راح هو الآخر ينزف دماً أسودَ، أسود كالقطران غطّى عنقي وصدري. مسحتُ الدم عن المرآة بذراعي كي أتأكد مما أرى، فراح الدم يتدفق منها نافراً بكل الاتجاهات، وكلما مسحته ازداد تدفقاً. تطلعتُ إلى قدميّ فرأيتهما قد غاصتا في الدم. خرجتُ من الحمّام فاندفع الدم بسيلٍ انشطر إلى اتجاهين، أحدهما نحو الصالة والآخر اتجه إلى غرفة النوم. ناديتُ سهاد وروزا فلم تسمع إحدى منهما صراخي. فتحتُ باب الشقّة بحذرٍ كيلا يندفع الدم خارجاً إلى الشارع، وركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ، وفي نيتي فكرةٌ واحدة، لم يعد هناك مبرر لتأجيلها، وربما سأستيقظ من الكابوس قبل تحقيقها، ولكني لستُ نائماً، وما يجري لي الآن ليس كالكوابيس التي كنت أراها سابقاً. لم أكن خائفاً ولم أعرف لماذا أني أركض. حاولتُ أن أتوقف، فلم تطاوعني ساقاي، فواصلتُ

مكتبة الفكر الجديد

الركض، هرباً من شيء لا أعرفه. أنا لم أقتل أحداً.. نعم لم أقتل أحداً، ولكن من أين جاء الدم ؟ ربما هو دمي، أنا القتيل الراكض نحو قيامته، أنا !.. من أنا ؟ أأنا الكائن الفائض عن الحاجة ؟ أم أنا العدم الذي صدّق كذبة الوجود ؟. ركضتُ.. ركضتُ.. ركضتُ.. مررتُ بصبية يلعبون الكرةَ. لم ينتبه إليّ أحد منهم على الرغم من غرابة جسدي وطريقة ركضي إلى الوراء.. دخلتُ الغابة الكثيفة التي تبعد عن مكان سكني ببضع مئات من الأمتار. إلتقيت بعجوزين. انزاحا عن الطريق الضيق كلاً منهما إلى جانب وهما يتطلعان إليّ بخوف.. اجتزتُ الغابة نحو البحر.. لاح جسر المدينة الكبير أمامي. صار وصولي إليه أمنية استعجل تحقيقها، ولكي اختصر المسافة نحوه، اخترقتُ حقل الغزلان الذي يفصلني عن الجسر. توقفتْ وهي تنظر إليّ بعيون خائفة، شاهرةً قرونها الطويلة، متحفزةً. حينما اقتربتُ منها، فرّت من أمامي إلى الجانبين وهي تصطدم ببعضها. اجتزتُ حقلَ الغزلان حتى أصبحتُ على مسافة قصيرة من الجسر. اتخذتُ الطريق الترابي للصعود إليه. تشبثتُ بالسفح الصاعد نحو الجسر، غارزاً أصابعي في أحجاره. كان التراب ينهال عليّ وأنا أعانده في التسلق حتى وصلتُ إلى بداية الجسر. توقفتُ قليلاً، ثم واصلتُ الركض إلى منتصفه...

فجأة التفتّ حولي سيارة الشرطة، وخرج منها شرطيان مسرعين. رمى أحدهما نفسه عليّ قبل أن أكمل تسلق السياج.

حينما أخبرتُ المحامي المكلّف بالدفاع عني، بأني لم أقتل ابنتي، تطلعَ إلي بشفقة، وقال ببرود وثقة :

" لم يعد الإنكار مجدياً فكل الدلائل ضدك.. من آثار بصماتك حتى اعتراف زوجتك. "

مكتبة الفكر الجديد

لكنه عاد ليطمئنني :

" ستأخذ المحكمة حالتك النفسية في نظر الاعتبار. "

" ولكني لم أقتل.. "

قلتُ جازماً، فهزّ المحامي رأسه وهو يبحث في حقيبته عن شيء ما.

توقفت السيارة عند بوابة حديدية كبيرة. المكان لا يدلّ على هوية خاصة، فلا كتابة تشيرُ إلى لغة ما ولا ملامحَ تدلّ على جغرافية مدينة أو بلاد. السجنُ واسعٌ جداً، تغطي مساحته كلّ ما يُسمح للعين برؤيته (من الأفق إلى الأفق). سور صخري عال. صمتٌ مطبق، وما من كائنٍ يتحركُ سوى الأغنيات وحدها كانت تعبر السياج، والشرطي في برج المراقبة كان مشغولاً بأغنية أليفة، أليفة جدا. رفعتُ رأسي فرأيتُ فوق البوابة الحديدية الكبيرة لوحةً معدنية قديمة تساقط دهانها ولوّثها ذرق طيور. كُتبَ عليها بخطّ أحمر وباللغة العربية :

" سجنُ الكوت. "

فُتحت البوابة الكبيرة ودخلت السيارة ببطء شديد، ثم توقفت في باحة عريضة. خرج السائق حاملاً رزمة أوراق معه، بينما بقيتُ أنا والشرطي الجالس جنبي في السيارة. غاب لدقائق ثم عاد بصحبة شرطيين. أشار إلى زميله، فمدّ يده إليّ، ماسكاً الكلبجة من منتصفها ساحباً إياي نحوه. أحاطني رجال الشرطة الأربعة وهم يتبادلون النظرات بينهم. فكّ الشرطي الكلبجة، فمسكني الإثنان الآخران من ذراعيّ، وهمّا بسحبي إلى الداخل. تحدثَ معهما الشرطي الذي كان

مكتبة الفكر الجديد

جالساً جنبي، فتوقفا . تقدم مني. مسكني من كتفيّ وبصوتٍ يسمعه الجميع قال :

" الآن عرفتُ مَن الذي قتلته.. لكني مازلتُ مصراً على حدسي.. بأن وجهك يختلف عن وجوه القتلة. "

تطلعتُ إليه بابتسامة، وقلتُ باللغة الإنكليزية :

" We are all victims of the masks game. "

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

2014 / 10 / 16

فايله / دنمارك

مكتبة الفكر الجديد

إشارة

بتأريخ التاسع من حزيران/ يونيو من العام الحالي، توفي العراقي سامي عبد الحسين كاظم في مستشفى هورسنس، حيث نُقل إليها من السجن المركزي بعد إصابته بسرطان المخ.

ح.ع

مكتبة الفكر الجديد

The Mirror

Hameed Alaqabi

فتحَ الشرطيُ بابَ المقعد الخلفي للسيارة، وأشار إليَ باسطاً كفيه بحركة استعراضية وهو يردد «تفضل..». بدا لي كأنه يقولها بسخرية أو أنه يمنّ بها على شخص لا يستحق الاحترام. دلفتُ إلى جوف السيارة بسرعة خاطفة متحاشياً كاميرات الصحفيين التي توهمتُ أنها تلاحقني لالتقاط صور للقاتل الذي أثارت جريمته ردود أفعالٍ عنيفة، لم تهدأ منذ يوم ارتكاب الجريمة، لم تطل قضية وجود الأجانب في الدنمارك فحسب بل تعدت إلى ما هو أبعد بكثير، وقد تصدرتْ صورتي الصفحة الأولى من صحيفة الـ (الكسترا بليذ) الشعبية وصحف أخرى وبعناوين كبيرة تحمل معاني التحريض على طرد الأجانب الذين أصبح وجودهم يشكّل خطراً على التقاليد والحضارة الدنماركية، فوجدَ البعض في هذا فرصة للتهجم على العرب والمسلمين ودينهم الذي يحرّض على العنف والقتل، وتقاليدهم المتخلفة.

جلستُ لصقَ نافذة سيارة المارسيدس بمقاعدها الوثيرة، بينما جلس الشرطي المرافق لصقي تماماً محتلاً أكثر من ثلثي المقعد، تاركاً إلى يمينه مسافة تسع لشخص ثالث وربما لشخصين مثلي، بينما كان المقعد الأمامي خالياً إلا من السائق الذي كان مشغولاً بترتيب قيافته وهو ينظر في المرآة الصغيرة التي أمامه مطلقاً صفيراً ورأسه يترنح. وعلى الرغم من أني حييته بوضوح إلا أنه لم يرد على تحيتي بتجاهلٍ مقصود. رفعتُ ياقة معطفي الشتوي حتى غطت رأسي، وحشرتُ نفسي في بطانة جسدي الذي تضاءل حتى تخيلتني مجرد فراغ لا يشغل حيزاً في هذا الكون.

Design Mohamad Hayawi

مكتبة الفكر الجديد